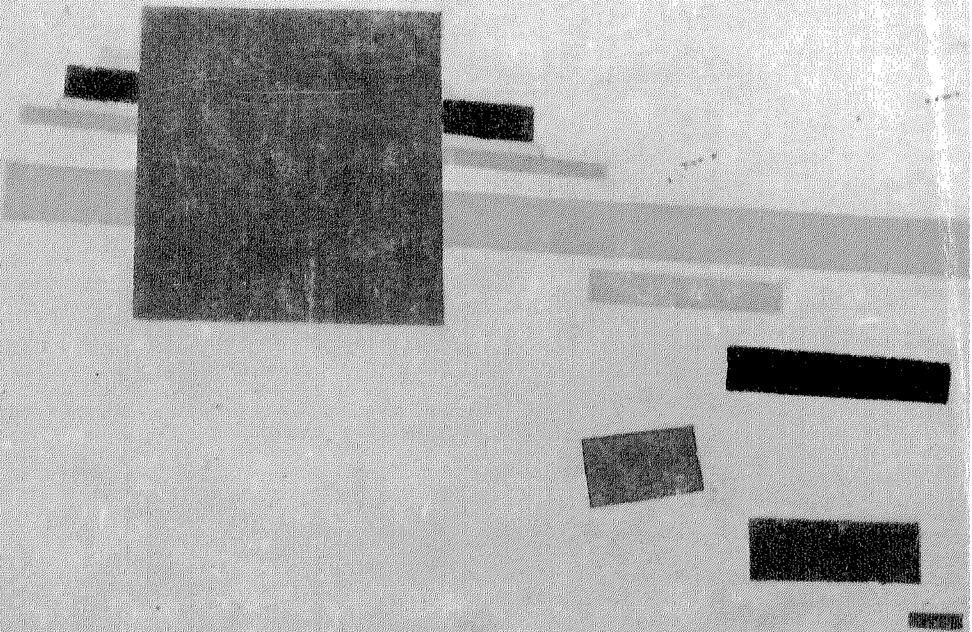
ميخائيل بولغاكوف



مذكرات طبيب شاب

ترجمة وتقديم

د. غسان مرتضى

روايات عالمية «٦٢»

الإشراف الفني   زهير الحمو

ميخائيل بولغاكوف

مذكرات طبيب شاب

ترجمة وتقديم
د. غسان مرتضى

منشورات وزارة الثقافة
في الجمهورية العربية السورية
دمشق ١٩٩٧

العنوان الأصلي للكتاب :

МИХАИЛ БУЛГАКОВ

ЗАПИСКИ ЮНОГО ВРАЧА

مذكرات طبيب شاب / ميخائيل بولغاكوف ؛ ترجمة وتقديم غسان مرتضى . —
دمشق : وزارة الثقافة ، ١٩٩٧ . — ١٤٩ ص ؛ ٢٥ سم . —
(روايات عالمية ؛ ٦٢) .

١ — ٨٩١،٧٣ د ب و ل م ٢ — العنوان ٣ — بولغاكوف
٤ — مرتضى ٥ — السلسلة
مكتبة الأسد

الإيداع القانوني : ع — ٢٠٥٣ / ١١ / ١٩٩٧

روايات عالمية
« ٦٢ »



مقدمة

ولد الكاتب الروسي ميخائيل افانا سيفيتش بولغاكوف عام /١٨٩١/ في مدينة كييف ، في بيت ثري بحياته الروحية والثقافية والفنية ... فقد كان أبوه افاناسي إيفانوفيتش بولغاكوف استاذاً في اكاديمية العلوم الروحية في كييف ، عالماً باللغات ومؤرخاً مقارناً للأديان. وكانت امه فارفارا ميخائيلوفنا مدرسة مثقفة ثقافة دينية وفنية وموسيقية عالية .

لم تدم للطفل ميخائيل أيام البلهنية والنعيم ، فقد توفي أبوه عام / ١٩٠٧ / وهو لما يزل تلميذاً على مقاعد الدراسة ، فاضطرت أمه الى العمل ، وكابدت الأسرة ضنك العيش ، لكنها استطاعت ، على الرغم من قلة الموارد ، أن ترسل ميخائيل الى الجامعة عام /١٩٠٩/ ليدرس في كلية الطب ويتخرج فيها عام /١٩١٦/ بدرجة امتياز .

التحق الطبيب الشاب فور تخرجه / ١٩١٦ / بالجبهة الجنوبية الغربية متطوعا في الصليب الأحمر ، ومارس هناك عند خط النار ، مهنته الإنسانية أول مرّة ، فعالج المرضى وداوى الجرحى ، واجرى العمليات الجراحية البسيطة ... وفي نهاية العام نفسه عين طبيباً في إحدى قرى قضاء (سمولينسك) ، فرحل الى هناك ليقضي في الريف النائي عاماً كاملاً يعاني من الوحشة والغربة ، ومن الطبيعة القاسية ويناضل مناضلة لا هوادة فيها الجهل والتخلف والسحر والغيبيات والأمراض المتفشية والسارية ، ويختبر معارفه العلمية وقدراته الطبية ورباطة جأشه ... كان عاماً صعباً وخصباً وصفه الكاتب فيما بعد في قصصه « مذكرات

طبيب شاب » . وأثناء إقامته في ريف (سمولينسك) النائي هبت رياح الثورة في موسكو ومدن روسيا الكبرى لكنه لم يستطع المشاركة فيها لانقطاع قريته عن العالم المحيط بها ، بل إنه لم يستطع متابعة أخبارها في الصحف لأن الصحف نفسها لم تكن تصل الى هناك .

عاد بولغاكوف في نهاية عام /١٩١٧/ الى كييف ، وعرّج في طريقه على موسكو وساراتوف ، وفي أثناء توقفه في موسكو رأى ما فعلته الثورة والحرب الأهلية فكتب الى أخته ناديا في اليوم الأخير من عام / ١٩١٧ / : « ... منذ زمن قريب ، أثناء سفري إلى موسكو ثم إلى ساراتوف حصل أن رأيت كيف تهجم الجموع الغفيرة لتحطم الزجاج في القطارات ، ورأيت كيف يضربون الناس ، رأيت البيوت المهدمة والمحترقة ... في موسكو رأيت طوابير الجياع مصطفين عند الحوانيت ... رأيت الجنود المثيرين للشفقة ... » . لكن الحياة في كييف لم تكن افضل ، فقد عانت عاصمة أوكرانيا ، وعانى بولغاكوف معها ، من الحرب الأهلية الدامية التي نشبت بعد ثورة أكتوبر ، وشاركت فيها الفئات المتصارعة كلها : الجيش الأحمر ، والحرس والأبيض والقوميون (التبلوريا) ... الخ كما عانت من الاحتلال الألماني ....

ومما زادَ في معاناة الاديب ميخائيل بولغاكوف أنه لم يكن صاحب موقف واضح يدافع عنه ، ولم يكن ميالاً لجهة من الجهات المتصارعة . غير أنه وُضع في بؤرة الصراع وإن لم يكن له يد في اختياره . ذلك أن أسرته كانت ميالة بحكم ثقافتها الدينية والليبرالية وبحكم موقعها البرجوازي الى البيض فانضم أخواه الى صفوف مقاتلي الحرس الأبيض، أما هو فلم يجد في دموية البيض أو القوميين ما يشجعه على الانتماء لهم ، كما ان البلاشفة لم يكونوا أمله المنشود ولاسيما سلوكهم الذي اختاروه للوصول الى السلطة .

تابع بولغاكوف عمله الطبي بعد أن ثبتّت البلاشفة مواقعهم في أوكرانيا عام /١٩١٩/ وبدأ في الوقت نفسه بتدوين قصصه (مذكرات طبيب

شاب) ، لكنه لم يستمر طويلا في عمله الطبي ، إذ وجد أن الأدب هو طريقه الوحيدة في هذه الحياة ، فارتحل الى موسكو عام /١٩٢١/ ليعمل في صحفها ومسارحها ... وهناك بدأ بكتابة رائعته (الحرس الأبيض) التي أنجزها عام /١٩٢٤/ ، وهي تتحدث عن الحرب الأهلية وعن هزيمة البيض في أوكرانيا ، ونشر قصتيه الهجائيتين الساخرتين (كتابات على أطراف الأكمام) و (أنشودة الشيطان) . وكتب قصته المتميزة (قلب كلب) التي تسخر من حياة البيروقراطية ، وتهجو حياة الزيف والنفاق، لكن هذه القصة بقيت مخطوطة في أرشيف المؤلف حتى عام /١٩٨٧/ . وشرع في عام /١٩٢٨/ بكتابة رائعته الخالدة (المعلم ومرغريتا) التي استمر في كتابتها حتى آخر لحظات حياته عام /١٩٤٠/ .

لم تكن قصص ميخائيل بولغاكوف ورواياته وراء شهرته الواسعة التي حصل عليها في منتصف العشرينات ، بل كانت هذه الشهرة وليدة المسرح الذي وهبه بولغاكوف جزءاً كبيراً من حياته واهتماماته الإبداعية. فقد كتب للمسرح عدداً من الأعمال أهمها مسرحيته (أيام آل توربين) التي عرضت على (مسرح موسكو الأكاديمي الفنّي) فلاقت رواجاً منقطع النظير ، حتى إن ستالين نفسه كان حريصاً على مشاهدتها غير مرة ، ومسرحيته (شقة زويا) و (الهروب) و (الجزيرة القرمزية) ...

كان بولغاكوف رجلاً معاكساً للتيار ، فلم يأبه للسلطة ومناصبها وأوسمتها ، وترك لروحه العنان لتعبر عن مأساة البؤساء والمبدعين والفنانين والشرفاء ولتفضح بسخرية لاذعة وهجائية شديدة زيف المتسلطين والمنافقين . لذا لم يرق أدب بولغاكوف ومسرحه لذوي الشأن فمنع من نشر أعماله وعرض مسرحياته وأوقف عرض (الجزيرة القرمزية) عام /١٩٢٧/ ، فانتهت بذلك حياته الأدبية العلنية التي لم تستمر إلا سبع سنوات ، وانقطع دخله بعد أن طرد من عمله فانسدت الآفاق أمامه ، ووصل الى حد اليأس ، فأحرق مخطوط (المعلم ومرغريتا) عام /١٩٣٠/ ، وحاول غير مرة أن يهاجر خارج البلاد لكنه

لم يوفق الى ذلك ... فكتب رسالة الى الحكومة السوفياتية ، ثم كتب اخرى إلى ستالين للسماح له بالهجرة... وجاء رد ستالين عبر الهاتف، وبقي الكاتب في وطنه يعمل موظفاً في المسرح ويسهر الليالي الطوال يهذب روايته (المعلم ومرغريتا) .

إنّ اهم ما يميز فنّ ميخائيل بولغاكوف هو الارتباط الوثيق بين سيرته الذاتية وإبداعه الأدبي . فقد كانت حياته الشخصية مصدراً لإلهامه وموضوعاً لإبداعه في وقت واحد ؛ حتى إنّ كل عمل من أعماله يصور مرحلة معينة من مراحل حياته ، لتشكل اعماله في مجموعها سيرته الذاتية الواقعية الفانتازية السحرية التي لا تشبه السير إلا في بعض ومضاتها .

أراد بولغاكوف أن يترك للخلف شهادة فنية عن الكوارث التي عاشتها روسيا والتي كان شاهداً عليها ومشاركاً فيها بغير إرادته ، فكانت شهادته نابعة من رؤيته الخاصة ، وهي رؤية لم تكن ملتزمة إلا بالفن الأصيل والأخلاق السامية ؛ رؤية ساخرة متهكمة تنتقد اخلاقيات البيروقراطية الزائفة وتعرّي انتهازية الساسة ، وتنزع عنهم زيّهم الرسمي وأوسمتهم وربطات اعناقهم ليظهروا من داخلهم عارين اقزاماً أمام العيون ...

لم يكن بولغاكوف ملتزماً بحزب او سياسة ، لكنه كان فناناً وإنساناً صادقاً ، يضع فنه وإنسانيته فوق كل التزام ، تحدوه أغنية الضمير النقي ، ولا يغريه الجاه أو النشب ...

ولئن غفل الناس عن إبداع بولغاكوف بسبب منع تداول اعماله في الاتحاد السوفياتي بين عامي ١٩٢٧ — ١٩٨٥ ، فانهم الآن عادوا يقدرون هذا المبدع ويعطونه حقه بعد أن راجت اعماله رواجاً مذهلا في بلدان كثيرة من العالم . ومن أهم اعماله الأدبية :

الروايـــات :

الحرس الأبيض : كتبها المؤلف عام ١٩٢٢ ـ ١٩٢٤ طبع ١٣ باباً منها في مجلة (روسيا) عام ١٩٢٥ . تم طبعت كاملة في باريس عام ١٩٢٧ . ولم تطبع كاملة في روسيا إلا عام ١٩٨٨ .

المعلم ومرغريتا : كتبها المؤلف عـــام ١٩٢٨ ـ ١٩٤٠ . ولم تطبع إلا عام ١٩٧٣ .

مـــذكرات مرحوم أو رواية مسرحيـــة : طبعت أول مرة في مجلة (العالم الجديد) ١٩٦٥ . ثم طبعت مستقلة عام ١٩٧٣ .

القصص :

انشودة الشيطان : طبعت عام ١٩٢٤ .

البيضات القاتلة : طبعت عام ١٩٢٥ .

قلـــب كلـــب : كتبها المؤلف عام ١٩٢٥ ـ ١٩٢٦ . وطبعت عـــام ١٩٦٨ في إنكلترا وألمانيا . ولم تطبع في روسيا إلا عام ١٩٨٧ .

الى صديق سري : لم تطبع إلا عام ١٩٨٧ .

القصص القصيرة :

مغامرات الدكتور العجيبة : طبعت عام ١٩٢٢ .

التاج الأحمر : طبعت عام ١٩٢٢ .

القصة الصينية : طبعت عام ١٩٢٣ .

مذكرات على الاكمام : طبعت عام ١٩٢٢ ـ ١٩٢٤ .

المـــورفـــين : طبعت عام ١٩٢٧ .

* * *

« مذكرات طبيب شاب » مجموعـة قصصية تعكس فنياً تجربة حياتية ومهنية عاشها بولغاكوف في مشفى الصليب الأحمر في الجبهة ، وفي ريف (سمولينسك) النـائي ، لكنهـا ليست انعكاساً آلياً ، أو مذكرات بيوغرافية ... فقد ترك بولغاكوف لحظات التجربة تنتظر سنتين من الزمن لتختمر في ذهنه المتوقد ولتاخذ شكلها الإنساني العام ، بحيث تصبح تجربـة لكل طبيب مبتـدىء في كل مكان ... لقد بدأ بولغاكوف بتدوين قصص هذه المجموعة عام /١٩١٩/ عندما كانت الحرب الأهلية في كييف على اشـدها ... وبينما كانت دماء المأساة تسفك في الشوارع والأزقة .... كانت هناك دماء أخرى تقطر على طاولة الطبيب الجراح لتبشر ببـرء المريض ، أو بولادة واعـدة ، وهي عند بولغاكوف دماء الأمل والنفاء والمستقبل ... اما الرصاص الذي يقتل الأبرياء في الشوارع ، ويوجهه الإنسان نحو اخيه الإنسان فإنه يتحول تحت ريشة الفنان المبدع إلى وسيلة للتخلص من الذئاب المفترسة التي توشك أن تنقض على المزالج ، وتجهز على الطبيب والحوذي (العاصفة الثلجية) .

تتحدث قصص هذه المجموعة عن الخطوات الأولى التي يخطوها طبيب شاب في ممارسة مهنة الطب ، إنها خطوات مغامرة وبريئة ، شجاعة ومترددة في وقت واحد . بطلها الرئيس طبيب شاب تخرج حديثاً من مقاعد الدراسة ، ورماه قدره بعيداً في الريف النائي وسط غابات البتولا اللامتناهيـة والثلوج البيض التي تغمر الكون وتحيـل الأشياء الى لون واحد ... رماه القدر ليضع تفاؤله ومثياليته الأخلاقية، وشبابه ومرحه ، وقلة خبرته الحرفيـة في مواجهة صعوبات الجهل والتخلف والسحر والشعوذة ... فما كان عليه إلا أن يجابه ويخوض حرباً ضروساً ، يثبت فيها وجوده واحلامه ، ويدمر خصميه العنيدين: الجهل والمرض .

تحكي قصص المجموعة حكاية المثل الاخلاقية الرفيعة ؛ حكاية البهجة باثبات الذات ، والفرح بتجاوز قلة الخبرة والتجربة ، والانتصار على المرض ، والحيلولة دون موت إنسان ما ؛ تحكي عن روح الشاب المثالي المتفائل المنتصر دائماً ، الذي يرى كل شيء جميلا ومثاليا ... كل الوجوه الانسانية في هذه القصص فاتنة خلابة « تقطر جمالا مدهشاً » ؛ فالطفلة التي انقذها طبيبنا الشاب من الاختناق بمرض الخانوق كانت خارقة الجمال حتى إنه نسي عندما رآها علم العمليات الجراحية ؛ نسي وحشته ووحدته ، والحِمْل الجامعي الذي يثقل كاهله ، نسي « كل شيء تماماً امام جمال هذه الطفلة الأخّاذ ... كان شعرها على طبيعته مجعداً كخواتم كبيرة ، ولونها كلون الحنطة الناضجة ، وعيناها واسعتان زرقاوان .. وخدّاها كخدي دمية ... حتى الملائكة لم تُرْسَم بهذا الشكل » . أما تلك التي وقعت في محلجة الكتان ، والتي اضطر طبيبنا الشاب الى إجراء عملية البتر لرجلها ، فقد « ذوى خلف وجهها الأبيض الذي يشبه الثلج الساكن جمالٌ حقيقي نادر لا يرى المرء مثله دائماً ، بل قلما يرى مثله » .

ويجاوز الجمال في عالم بولغاكوف القصصي الوجوه الإنسانية ليشمل الأشياء من حوله فيصبح كل شيء جميلا : المصباح المتلألىء عند البوابة ، وشقة الطبيب بما فيها من مكتبة وآرائك وموقد هولندي ... حتى الطبيعة القاسية المتوحشة ، التي كثيراً ما يعاتبها الكاتب لقسوتها، تتحول في احيان كثيرة الى ذات انسانية رائعة تشعر بالقلق والأسى وتشارك الطبيب مشاعره : « كان الهواء يأتي القائنا عذباً ... ونحن نسمع هدير الماء ، هدير الماء المرح الذي يندفع عبر دعامات الجسر الخشبية ... استقبلنا الوليد الذكر ، استقبلنا روحاً حية وانقذنا الأم ... » .

كل ما يحيط بالطبيب الفتي جميل وإيجابي ، فالمرضى لهم عيون ساحرة وواسعة ... والعالم الطبي مثالي تماما . فالمساعد والممرضات

ـ وحتى الحارس إيغوريتش ـ متحفزون دائمـا ، منكرون للذات ، مستعدون للمساعدة والقيام بالواجب . اما الاطباء الذين يأتي على ذكرهم فهم متفوقون موهوبون متميزون (ليوبونتي وطبيب مشفىالمدينة دو اللحية الصفراء) ... كل شيء يؤدي الى النهاية السعيدة ، النهاية التي ينتظرها القارىء بسوق وتحفز . لكن بولغاكوف لا يوصلنا الى تلك النهاية قبل ان يجول معنا في عوالمه الساحرة وينقلنا من غرفـة الاستقبال الى العنبر ثم الى غرفة العمليات فغرفة الطبيب فالمكتبة ... إنه عالم واقعي . يسي بصدق المؤلف الفني الناتج عن صدق التجربة الحقيقية ؛ وحتى في تلك اللحظات التي لا يتفق فيها سياق القصص مع سيرة الكاتب الذاتية فإنه يوهمنا بصدقه الفني الذي يصل إليـه عبر تماسك القصة ووحدتهـا ، وجمال الوصف ودقتـه ، وسلاسة الأسلوب وبساطته ، حتى إنه يقودنا عبر الحبك المحكم الى المتابعة دون ملل حتى نصل الى الغاية والهدف .

* * *

كان من عادة ميخائيل بولغاكوف أن ينسخ مؤلفاته من دفتر الى آخر جديد ، ويقوم في اثناء ذلك بعمليات الحذف والإضافة والتصحيح والتنقيح ... وقد فعل ذلك مع هذه المجموعة مرة واحدة عام /١٩٢١/ ـ وذلك خلافاً لعادته في الإكثار من المراجعة والتدقيق ، ولم يعد إليها إلا عام ١٩٢٥ ـ ١٩٢٦ عندما أخذ ينشرها منجمة في مجلتي (البانوراما الحمراء) و (الباحث الطبي) . وكانت عملية النشر هذه هي الوحيده لقصص هذه المجموعة إبان حياة المؤلف ، إذ لم تطبع ثانية إلا في منتصف الثمانينات عندما سمحت السلطات السوفياتية بنشر اعمال الأدبـاء الذين لم يكونوا في جانب السلطة .

ولأن المؤلف نشر القصص منجمة ، ولم ينشرها كلاً متكاملاً ، بل لم يراجعها دفعة واحدة على مايبدو ، فقد وقع في بعض الهنات التي

ما كان لها أن تكون لو تعامل مع هذه المجموعة بالحرص المعهود عنه في أعماله الأخرى .

وفي هذا الصدد يمكن الإشارة إلى أخطائه في ذكر اسم المدينة ، واسم المنفى ، وعمر الطبيب ، وأسماء الممرضات ... ويمكن الإشارة في هذا المجال أيضاً إلى مشكلة ترتيب القصص ، إذ يحار الباحث أيها يضع أولا (الحنجرة الحديدية) أم (المنشفة ذات الديك) ، فكل واحدة تصلح أن تكون قصة افتتاحية ، كما يحار في ترتيب القصص الأخرى !!

إن مثل هذه الهنات الطفيفة لاتؤثر تأثيراً مباشرا في جوهر النصوص ، لكنها تؤكد أن التعديلات التي أجراها المؤلف بين لحظتى الكتابة الأولى والنشر لم تكن جوهرية ، وشاملة بقدر ماكانت جزئية وسطحية .

نشرت قصص المجموعة بين عامي / ١٩٢٥ ـ ١٩٢٦ / في مجلة الباحث الطبى الموسكوفية على النحو التالي :

التعميد بالتحويل	٢ /١٩٢٥/١٢
العاصفة الثلجية	١/٢٥ /١٩٢٦
العتمة المصرية	٧/٢٧ /١٩٢٦
الطفح النجومي	٨/٢٩ /١٩٢٦
المنشفة ذات الديك	٩/١٨ /١٢٩٦
العين المفقودة	١٩٢٦/١٠/١٢

أما قصة الحنجرة الحديدية فقد نشرت في ١٩٢٥/٨/١٥ في مجلة (البانوراما الحمراء) اللينينغرادية .

وقد اعتمدنا في هذه الترجمة على طبعة الأعمال المختارة في جزأين الصادرة في منيسك عام /١٩٩١/ .

د. غسان مرتضى

الحنجرة الحديديـة

...وهكذا غدوت وحيداً ، يحيط بي ظلام تشرين الثاني ، وثلجه المتقلب الذي غمر البيت ، وريحه التي تصفر في المداخن . لقد عشت أعوامي الأربع والعشرين في مدينة كبيرة جداً ، وكنت أظن أن العواصف الثلجية تعوي في الروايات فقط ، لكن ، ظهر لي أنها تعوي على أرض الواقع أيضاً . المساءات هنا طويلة طولاً غير عادي ، ومصباح الطاولة الأزرق يعكس ضوءه في النافذة السوداء ، وأنا أحلم ، ناظراً في البقعة المضاءة على طرف يدي اليسرى : حلمت بمركز القضاء الذي يبعد عشرين فرسخاً من هنا ، تمنيت أن أهرب من مركزي هذا إلى هناك حيث يوجد كهرباء ، وأربعة أطباء يمكن للمرء أن يطلب النصيحـة منهم ، وعلى كل حال ، فالأمر هناك ليس مخيفاً كما هو هنا ، لكن ، ليس ثمة فرصة للهرب ، بل يخيل إلي أحياناً أن الهرب ضرب من التخاذل ، لقد درستُ في كلية الطب من أجل هذا بالذات ..

... ماذا لو أتوا بامرأة تعاني من حالة ولادة عسيرة ؟ أو بمريض يعاني من فتق مختنق ؟ ماذا سأفعل ؟ انصحوني من فضلكم ! فقـد تخرجت منذ ثمانية وأربعين يوماً في كلية الطب بتقدير ممتاز ، لكن كلمة ممتاز تبقى على الورق ولن تساعد في عملية الفتق المختنق .

شاهدت مرة واحدة فقط كيف أجرى البروفيسور عملية جراحية للفتق المختنق ، لقد أجراها في حين جلست أنا في المدرج ... فحسب .. كان العرق البارد يبلل ظهري عندما كنت أفكر بالفتق المختنق . كنت أجلس كل مساء في وضعية واحدة لا أغيرها ، أعبُّ الشاي وقد وضعت

تحت يدي كل كتبي العلمية حول عمليات التوليد ، وفوقهـا دليـل « دوديرليان » الطبي الصغير ، وتناثرت عن يميني عشرات المجلدات المختلفة حول العمليات الجراحية مع الرسومات التوضيحية . كنت أتأوه ، أدخن وأشرب الشاي البارد .. وهكذا غفوت على هذه الوضعية، اذكر تلك الليلة جيداً ـ ٢٩ تشرين الثاني ـ إذ استيقظت منذ خمس دقائق على صوت قرع شديد على الباب ، وها انذا أحاول ارتداء بنطالي دون أن أحوّل عيني المتضرعتين عن الكتب المقدسة للعمليات الجراحية ، سمعت صرير المزلاج في باب الفناء . أثناي أصبحتا مرهفتين على نحو مدهش . حدث ، على ما يبدو ، شيء أشد رهبة من الفتق ، وأشد تعقيداً من حالة الولادة العسيرة . لقد جاؤوا بطفلة مريضة الى مشفى نيكولسك في الساعة الحادية عشرة ليلا .

قالت لي الممرضة بصوت خافت :

ـ طفلة مريضة تموت ... من فضلك يا دكتور الى المشفى ...

اذكر أنني قطعت الفناء ومشيت مهتدياً بضوء مصباح الكاز ، وعند مدخل المشفى نظرت كالمسحور الى تلألؤ المصباح .

كانت غرفـة الاستقبال مضـاءة ، والعناصر الذين يساعدونني ينتظرون قدومي مرتدين ملابسهم البيض . هؤلاء هم : مساعدي ديميان لوكيتش ، إنه جد كفء على الرغم من صغر سنه ، وقابلتان خبيرتان : ماريا نيكو لايفنا وبراسكو فيا ميخائيلو فنا أما انا فقد كنت شاباً في ربيعي الرابع والعشرين ، تخرجت في الجامعة منذ شهرين وعينت رئيساً لمشفى نيكولسك .

فتح مساعدي الباب بطريقة احتفالية فظهرت لي أم لكانها دخلت طيراناً أو متزحلقة بجزمتها الشتوية حتى أن الثلج لم يكن قد علق على خمارها ، كان وجهها مجعداً وكانت تبكي بصمت ، وهي تحمل بين يديها

لفة تزرقو وتصفر بشكل رتيب ، وعندما خلعت الأم معطفها وخمارها ، حلت اللفة فشاهدت طفلة في عامها الثالث ، ونسيت في تلك اللحظة علم العمليات الجراحية كلياً ، ونسيت وحشتي والحمل الجامعي الذي يثقل كاهلي ، نسيت كل شيء تماما أمام جمال هذه الطفلة الأخاذ .

بأي شيء يمكنني مقارنتها ؟ لا يوجد أطفال بهذا الجمال إلا على علب الشوكالا فقط ، كان شعرها على طبيعته مجعداً كخواتم كبيرة ، ولونها كلون الحنطة الناضجة ، وعيناها واسعتان زرقاوان ، وخداها كخدي دمية ، حتى الملائكة لم ترسم بهذا الشكل . لكن ، ثمة كدر غريب عشش في قاع عينيها ، وفهمت أن هذا الشيء الغريب هو الخوف — لم يكن بامكانها أن تتنفس ، « ستموت بعد ساعة » ، فهمت بشكل لا ريب فيه ، فانقبض قلبي انقباضاً موجعاً ...

لاحظت أن المجاري الهوائية تغور تحت حنجرتها ، وأن العروق تنتفخ عند كل شهيق ، وأن لون الوجه الوردي النضر قد تحول إلى ليلكي باهت لقد فهمت معنى تغير اللون هذا وفهمت فوراً أين تكمن المشكلة . وقد كان تشخيصي الأول صحيحاً تماماً ، والأهم من ذلك كان متزامناً مع تشخيص القابلتين الماهرتين الخبيرتين : « الطفلة مريضة بالخناق وقد تراكمت الاغشية المريضة في الحنجرة وعما قريب ستنغلق تماماً ... » .

سألت مخترقاً صمت أفراد مجموعتي المتحفز :

— كم يوماً مضى على مرض الطفلة ؟

— اليوم الخامس — قالت الأم وهي تنظر الي بعينيها الواجمتين .

إنه الخناق — قلت لمساعدي دون اكتراث ، ثم قلت للأم :

— وأنت بأي شيء كنت تفكرين ؟ ماذا كنت تعتقدين ؟

في تلك اللحظة دوّى من خلفي صوت باك :

ـ اليوم الخامس يا أبتاه ، الخامس ...

والتفتُ فرأيت عجوزاً هادئة مدورة الوجه ، تضع خماراً . « كم كان عظيماً لو لم تخلق هذه العجائز بتاتاً » ، وفكرت في الهاجس المحزن الذي ينذر بالخطر وقلت :

ـ انت يا عجوز ، اسكتي إنك تعيقينني ، واعدت السؤال على الأم :

ـ بماذا كنت تفكرين منذ خمسة أيام ؟ آ ... ؟

دفَعَتْ الأم بالطفلة الى العجوز بحركة تلقائية، وركعت على ركبتيها امامـي ، ثم قالت وهي تضرب جبينها بالأرض :

ـ أعطها شراباً ... سأخنق نفسي اذا ماتت .

ـ انهضي حالاً وإلاّ فإنني لن أتحدث معك بعد الآن .

نهضت الأم بسرعـة تحف تنورتها الواسعة بالأرض ، وتناولت الطفلة من العجوز وراحتْ تهدهدها . في حين اخذت العجوز تصلي متوجهـة نحو أيقونة في الزاوية وتابعت الطفلـة تنفسها الذي يشـبه الفحيح .

قال مساعدي :

ـ كلهم يفعلون الشيء ذاته نا ... س ، ومال شارباه ـ وهو يقولها ـ ميلا واضحا .

ـ ماذا إذاً ؟ هل ستموت ؟ سألت الأم وهي تنظر إليّ بغبظ أسود. فاجبت بصوت خفيض وجازم :

ـ نعم ستموت .

عند ذلك تناولت العجوز طرف ثوبها وأخذت تمسح عينيها ، بينما صاحت الأم بصوت أجش :

ـ أعطها ، ساعدها ، أعطها شراباً .

لقد عرفت جيداً ما ينتظرني ، فكنت حازماً :

ـ اي شراب أعطيها ؟ النصحوني ، الطفلة تختنق ، حنجرتها مملوءة ، وأنت منذ خمسة أيام تعذبينها على بعد خمسة عشر فرسخاً من هنا ، والآن ماذا تريدين أن افعل ؟

قالت العجوز ما جانب كتفي الأيسر بصوت مصطنع :

ـ انت تعرف أكثر يا أبتاه ..

وعلى الفور شعرت حيالها بمقت شديد .

ـ اخرسي ، قلت لها ، واتجهت نحو مساعدي وأمرته أن ياخذ الطفلة .

اعطت الأم الطفلة للقابلة ، فأخذت تخفق بين يديها تريد على ما يبدو أن تصرخ ، لكن صوتها لم يخرج . وارادت الأم الدفاع عن ابنتها فأبعدناها ... واستطعت أن انظر في ضوء المصباح الساطع الى بلعوم الطفلة . حتى تلك اللحظة لم أرَ في حياتي حالة خناق حادة ابداً ، إلا تلك الحالات البسيطة التي كنت قد نسيتها بسرعة . كان ثمة شيء ما منتفخ أبيض ممزق في بلعومها . تنفست الطفلة فجاة بعمق ، وبصقت في وجهي ، لكنني ـ لسبب ما ـ لم اخف على عيني المشغولتين بأفكاري

قلت وانا مدهوش من قدرتي الذاتية على تمالك الأعصاب :

ــ الأمر كذلك ، لقد تأخرتم ، الطفلة ستموت ، ولا يمكن مساعدتها إلا بشيء واحد هو العمل الجراحي .

وتوجست خيفة من قولي هذا . لماذا قلته ؟ لكنني لم أستطع إلا ان اقول . وخطرت في ذهني فكرة : « ماذا لو وافقوا ؟ »

سألت الأم :

ــ كيف هذا ؟

فشرحت لها :

ــ يجب علينا أن نفتح الحنجرة من اسفلها ، ونضع أنبوباً فضياً ، كي تتمكنَ الطفلة من التنفس عندئذ يمكن أن ننقذ حياتها .

نظرت الأم نحوي نظرتها الى مجنون ، وحجبت عني طفلتها بيديها. أما العجوز فشرعت تقول :

ــ ماذا بكِ ، لا تعطـه إياها ، سوف يـذبحها ، ماذا بك ؟ إنها حنجـرة ...

قلت لها بكره شديد :

ــ اخرجي أيتها العجوز من هنا . ثم أمرت مساعدي قائلا :

ــ رشوا الكافور !

لم تعطنا الأم الطفلة عندما رات المحقنة ، لكننا شرحنا لها أن هذا ليس مخيفاً . فسألت :

ــ أيمكن لهذا ان يساعدها ؟

ـ لا ، لا يساعدها إطلاقاً .

عندها عادت الأم للنحيب .

ـ كفي عن هذا ، قلت لها ، ثم نزعت ساعة يدي وتابعت :

ـ أعطيك خمس دقائق للتفكير ، وإذا لم توافقي خلال هذه الدقائق الخمس فسأتخلى بعد ذلك عن هذا الأمر بنفسي .

فقالت الأم بحدة :

ـ غير موافقة .

واضافت العجوز :

ـ لسنا موافقين .

ـ إذاً كما تريدان . قلت بصوت خفيض ، وفكرت « وهكذا ينتهي كل شيء ، وهذا أسهل علي ، لقد قلت لهم ، عرضت عليهم أمام عيون القابلات المدهوشة ، لكنهم رفضوا ، فانقذوني » . وما كدت أنتهي من تفكيري هذا حتى صاح أحدهم من ورائي بصوت غريب .

ـ ماذا بكما ، هل جننتما ؟ ما معنى رفضكما هذا ؟ أتقتلان الطفلة ؟ وافقا . . . كيف لا تشفقان عليها ؟

ـ لا . . . صرخت الأم من جديد .

فكرت في نفسي « ماذا أنا فاعل ؟ قد أذبح الطفلة » . لكنني قلت قولاً مخالفاً :

ـ هيا بسرعة ، بسرعة ، وافقا وافقا . لقد بدأت أظفارها تميل الى الزرقة .

ـ لا ، لا ...

ـ إذاً خذوهما الى العنبر لتجلسا هناك .

فأخذوهما عبر الممر شبه المعتم .. وسمعت بكاء المرأة وصفير الصغيره . وبعد ذلك عاد مساعدي لينقل إلي موافقتهما .

ـ وافقتا ..

تحجر كل شيء في داخلي ، لكنني قلت بشكل واضح :

ـ عقموا المبضع والمقصات والكلابات بسرعة ...

بعد دقيقة قطعت الفناء مسرعاً ، حيث كانت الزوبعة الثلجية تمر مسرعة تضرب الوجه كالشيطان . وركضت الى غرفتي حاسباً الدقائق، فتناولت كتاباً وقلبت صفحاته فوجدت رسماً توضيحياً يصور طريقة شق الرغامى . كان كل شيء واضحاً في الرسم وكانت الحنجرة مفتوحة بسهولة والسكين مغروزة في الرغامى .

عكفت أقرأ النص دون أن أفهم شيئاً ، إذ كانت الكلمات تقفز من أمكنتها أمام عيني بشكل غريب . أنا ، لم أرَ في حياتي كيف يجرون جراحة الرغامى ، « آه لقد فات الأوان » قلت في نفسي وأنا أنظر باكتئاب على ضوء المصباح الأزرق في الصورة الواضحة أمامي . وشعرت أن عملا صعباً ومخيفا قد هبط على رأسي . ثم عدت أدراجي الى المنفى دون أن ألاحظ العاصفة في الفناء، كان الظلام دامساً في غرفة الاستقبال. جاءت العجوز بتنورتها الملفوفة ، فالتصقت بي وأخذت تشكو ناشجة :

ـ أبتاه .. كيف يكون الامــر كذلك ؟! كيف ستفتحون حنجرة الطفلة ؟ أويعقل هذا ؟ .. لقد وافقت، ، إنها امرأة غبية ، أما أنا فلست موافقة ، أقبل العلاج بالشراب لكنني لن أسمح بشق حنجرتها .

ـ لتخرج هذه العجوز من هنا . صرخت، ثم أضفت وأنا في سورة الغضب : انت الغبية ، انت ذاتك ، أما هي فذكية ، إضافــة إلى ذلك فإن أحداً لم يسألك . اخرجوها .

طوقت القابلة العجوز ثم دفعتها خارج الغرفة .

قال مساعدي فجأة :

ـ كل شيء جاهز .

دخلنا الى غرفة العمليات الصغيرة ، وما كدت أعبر العتبة حتى رأيت عبر الستائر الأدوات اللامعة ، والمصباح المبهر ، وغطاء المشمع...

وخرجت المرة الأخيرة الى الأم التي استطعنا انتزاع الطفلة من بين يديها بصعوبة ، فسمعت صوتاً مبحوحاً يقول :

« الزوج غير موجود ، إنه في المدينة ، سيأتي وسيعلم بما فعلت ، سيقتلني » .

ـ سيقتل ، كررت العجوز وهي تنظر إليّ نظرة مخيفة .

قلت آمراً :

ـ لا تدعوهما تدخلان غرفة العمليات .

أصبحنا وحدنا في غرفة العمليات ، الطاقم وأنا والطفلة لبدكا . كانت الطفلة جالسة على الطاولة عارية .. تبكي بلا صوت . مددوها على الطاولة . وغسلوا رقبتها ، ثم مسحوها باليود .

تناولت المبضع ، وفي تلك اللحظة فكرت : « ماذا أنا فاعل » ، كان كل شيء هادئاً في غرفة العمليات . جرحت بالمبضع الحنجرة المريضة المنتفخة جرحاً عمودياً . لم تنزف نقطة دم واحدة ، ثم مررت المبضع على الأنسجة الرخوة البيض التي كانت تفصل بين شقي الجلد فلم ينزف الدم أيضاً في هذه المرة ، وبينما شرعت أقص الشاش بمقص منلوم اخذت اتذكر بعض رسومات الأطالس الطبية تذكراً بطيئاً . عند ذلك اندفع الدم القاني من أسفل الجرح ، وغمر ، بلمح البصر الجرح كله وسال على الرقبة . فاخذ مساعدي يمسح الدم بقطع الشاش ، لكن النزف لم يتوقف ، حاولت أن اربط بين ما كنت رأيته في الجامعة وبين الحالة التي امامي ...

اخذت اضغط طرف الجرح بالملقط لكن دون نتيجة . أصابني البرد ، وابتل جبيني . اسِفتُ بحسرة لانني انتسبت الى كلية الطب ولانني اتيت بنفسي الى هذه المجاهل . وبيأس شديد غرزت الملقط بشكل اعتباطي في مكان ما قرب الجرح ، وضغطت ، عندها توقف النزيف ، فجففنا الجرح بقطع الشاش ، فظهر لي نظيفاً لكنه غير مفهوم البتة . لم يكن ثمة وجود للرغامى في اي مكان ، اما الجرح الذي أحدثته فلم يكن له شبه في أي رسم توضيحي . مرت دقيقتان أو ثلاث وانا اقوم بشكل آلي لا واع بغرز المبضع مرة والملقط مرة ثانية باحثاً عن الرغامى وفي نهاية الدقيقة الثانية يئست من العثور عليها .

« إنها النهاية ... فكرت — لماذا فعلت هذا ؟ كنت أستطيع الا اعرض عليهم العملية ، وبذلك تموت ليدكا بهدوء في العنبر ، أما الآن فإنها ستموت بحنجرة مشقوقة ولن استطيع البرهنة بتاتاً انها كانت ستموت على كل حال وانني لم أضرها ... » .

مسحت القابلة جبيني بصمت . « اضع المبضع جانباً ، اقول لا اعرف ما افعل بعد هذا ؟ » هكذا فكرت ، وتراءت لي عينا الأم ،

فأخذت المبضع من جديد وغرزته دون وعي في رقبة ليدكا بحدة وعمق فتباعدت النسج البيض وظهرت امامي الرغامى ظهوراً مفاجئاً .

ـ الكلابات !! طلبت بصوت مبحوح .

ناولني مساعدي الكلابات ، فغرزت طرف الكلاب الأول في جهة والطرف الثاني في الجهة الأخرى وناولت واحداً لمساعدي وبعدها رأيت شيئاً واحداً فقط حلقات الرغامى المصابة ، فغرزت المبضع الحاد فيها ، وصعقني ما رأيت إذ اندفعت الرغامى خارج الشق المحدث ، عندها اصيب مساعدي ، كما تهيأ لي ، بالجنون ، فقد أخذ فجأة يقتلع الكلاب من مكانه . تأوهت القابلتان من ورائي فرفعت عيني، وفهمت ما الخطب: لقد بدا انّ مساعدي قد أغمي عليه من جراء انحباس الهواء ولم يترك الكلاب الذي في يده فكاد يقلع الرغامى من مكانها . « كل شيء ضدي حتى القدر ـ وفكرت ـ يبدو الآن دون شك أننا قد ذبحنا ليدكا ، ثم استرسلت في التفكير وقلت لنفسي جازماً : حالما أعود الى البيت سانتحر .... » ، عندها رمت القابلة الأقدم ذات الخبرة الجيدة نفسها على مساعدي وتناولت منه الكلاب ، ثم قالت لي مطبقة بشدة على اسنانها :

ـ تابع يا دكتور .

سقط مساعدي على الأرض فارتطم محدثاً صوتاً ، لكننا لم نكترث له . غرزت المبضع في الرغامى ثم زرعت فيها الأنبوبة الفضية ، فانزلقت بحذق ، لكن ليدكا بقيت بلا حراك ولم يدخل الهواء الى مجراها التنفسي كما ينبغي أن يكون الأمر . تنفست الصعداء وتوقفت ، لم يكن علي أن افعل شيئاً بعد هذا ، كنت اود أن أعتذر من شخص ما ، أو اعترف بطيشي عندما قررت أن أنتسب إلى كلية الطب .

كان الصمت مطبقاً ، ورأيت كيف كانت ليدكا تزرق ، فرغبت أن اترك كل شيء وابكي . وفجأة ارتعشت ليدكا ارتعاشة غريبة وطرحت كالنافورة عبر الانبوبة الاعشية المعتلة والدم المتخثر . فدخل الهواء الى مجاريها التنفسية مصدراً صفيراً حاداً ، بعد ذلك اخذت الطفلة تتنفس وتئن بصوت مرتفع . في تلك اللحظة نهض مساعدي شاحباً متعرقاً ونظر بغباء وخوف نحو رقبة الطفلة وشرع بساعدني في إخاطة الجرح .

ورأيت عبر الحلم ، وعبر غشاوة العرق التي غطت عينيَّ وجهيْ القابلتين الفرحتين . فقالت لي إحداهما :

— لقد انجزت العملية إنجازاً رائعاً يا دكتور .

ظننت انهــا تسخر مني فنظرت إليها بكآبة مقطباً حاجبي ، ثم فتحوا الباب فدخل النسيم العليل ، وظهرت الأم في الباب على الفور ، كانت عيناها كعيني حيوان مفترس ، وسألتني :

— مــاذا ؟

عندما سمعت رنين صوتها سال عرقي في ظهري ، وعندها فهمت ماذا كان بمكن أن يحدث لو أن ليدكا ماتت على طاولة العمليات . لكنني اجبتها بصوت شديد الهدوء : — كوني مطمئنة ، إنها حية ، وستكــون حية كما اتمنى ، لكنها لن تستطيع نطق اية كلمة قبل أن ننزع الانبوبة لذا لاتخافي .

وهنا شبت العجوز من تحت الأرض راسمة علامة الصليب نحو ذ.ضة الباب ، ثم نحوي ، فنحو السقف . اكنني لم أغضب منها في هذه اللحظة . التفت وأمرت أن يحقنوا ليدكا بالكافور ، وأن يتناوبوا على رعايتها ، ثم ذهبت إلى غرفتي عبر الفناء . كان المصباح الأزرق مضاء في غرفة مكتبي ، حيث يوجد « دوديرليان » وحيث تناثرت الكتــب

هنا وهناك . اقتربت من الأريكة واضطجعت فوقها بملابسي ثم توقفت عن رؤية اي شيء مهما كان شأنه ، ونمت نوماً عميقاً حتى أني لـم أر أحلاماً .

مر شهر ثم آخر ، عاينت امراضاً كثيرة كان بعضها مخيفاً أكثر من حنجرة ليدكا ، لقد نسيت تلك الحنجرة .

كان الثلج يغمر الكون ، وكان عدد المرضى المعالجين يرتفع يوماً بعد يوم . وذات مرة في العام الجديد دخلت امراة إلى غرفة العيادة ، تسحب بيدها طفلة ملتحفة تشبه الصندوق ، تهللت عينا المراة ، وعندما انعمت النظر عرفتها .

ـ آ ... ليدكا ، مابها ؟

ـ كل شيء على ما يرام .

لقد فكوا الضمادات عن رقبتها ، كانت خجلة وخائفة ، لكنني تمكنت على الرغم من ذلك من رفع ذقنها ومن النظر إلى رقبتها ، كان ثمة ندبة سمراء عمودية على الجيد الوردي وندبتان عرضيتان رفيعتان من أثر الخياطة ، قلت :

ـ كل شيء على مايرام تستطيعين الا تاتي بعد الآن .

ـ فردت الأم :

ـ اشكرك يادكتور شكراً جزيلاً . ثم خاطبت ابنتها :

ـ قولي شكراً للعم .

لكن ليدكا لم تشأ ان تقول لي شيئاً . ولم ارها بعد ذلك بتاتاً واخذت انساها . أما معالجتي للمرضى فكانت تزداد يوماً بعد آخر ،

وجاء يوم عالجت فيه مئة وعشرة مرضى ، فقد بدأنا العمل في التاسعة صباحاً وانتهينا في الثامنة مساء ، وعند انتهاء العمال ، نزعت ردائي الأبيض وأنا أتمايل ، فقالت لي مساعدتي القابلة الأقدم :

ـ يجب ان تشكر الخناق على هذا النجاح . اتعرف مايقول الناس في القرى ؟ يقولون إنك مجنون ليدكا ، لقد وضعت مكان حنجرتها حنجرة فولاذية ، وأخطتها . إنهم يسافرون إلى تلك القرية خصوصاً كي يشاهدوها . هذا هو المجد يا دكتور . اهنئك . واستفسرتُ :

ـ أو تعيش بهذه الحنجرة الفولاذية ؟

ـ نعم إنها تعيش . اما انت يادكتور فممتاز . تفعل كل شيء بدم بارد وبشكل رائع .

ـ إيه ... نعم ، انا ، اتعرفين ؟ انا لا أضطرب ابداً . قلت لها هذا دون ان اعرف لماذا قلته . لكنا شعرت أنني من شدة الإرهاق لا أستطيع حتى أن أخجل ، حولت نظري إلى الجانب الآخر فقط ثم ودعتها وذهبت إلى غرفتي . كانت ندف الثلج تتساقط لتغمر كل شيء .. وكان المصباح مضاء . وكان بيتي منفرداً ، هادئاً وجميلا ، واثناء سيري كنت أرغب في شيء واحد فقط : ان انام .

* * *

التعميد بالتحويل

مرت الأيام وأخذت أعتاد الحياة شيئاً فشيئاً في مشفى (نيكولسك)
وبقي اهل القرى ـ على عادتهم ـ منهمكين في غزل الكتان ، وظلت الحواري عسيرة العبور ، ولم يرب عدد المرضى المراجعين عن خمسة يومياً ، لذلك فقد كرست الأماسي التي لم أكن اعمل فيها لترتيب المكتبة ومطالعة كتب الجراحة واحتساء الشاي عند السماور الذي يئز ازيزاً هادئاً ، وانا اكابد الوحدة الطويلة .

كان المطر ينهمر ليلاً ونهاراً انهماراً متواصلاً ، وتنقر القطرات السقف نقراً لا يهدأ ، ويتدفق الماء غزيراً تحت النافذة راشحا من المزراب إلى البراميل . وكان الفناء موحلا تحدق به من دياجي الظلام السادرة في حلكتها وقد زادها الضباب عتمة . وتنتشر من خلالهما حزم النور الشاحبة المنبعثة من نوافذ بيت مساعدي ومن المصباح الزيتي المضاء عند الباب الخارجي .

في إحدى هاتيك الليالي كنت عاكفا على مطالعة أطلس علم التشريح اكابد الصمت المحدق بي ، الصمت الذي لم يكن يقطعه إلا هراش الفئران خلف النملية في غرفة الطعام .

قرأت حتى بدأت اجفاني المتثاقلة بالإغماض ، وأهملت الأطلس واقصيته عني ثم انطلقت إلى غرفة النوم تحت ضجة الأمطار وقرعها ، وانا اتمطى في انتظار احلام هانئة ، فنزعت عني ثيابي واضطجعت ولم أكد الامس الحشية حتى لاح لعيني شبح آنا براخوروفنا وهي صبية لم تناهز السابعة عشر من عمرها من قرية تورو بوفو ، جاءت القلع أحد

اسنانها ، فدالف مساعدي ديميان لوكيتش وهو يحمل بكلتا يديه الملاقط المتلالئة. وتذكرت كيف كان يصطنع نبرة متفاصحة في اسلوبه إذ يستبدل كلمة باخرى مع انهما تشيران إلى المعنى نفسه ، فضحكت ضحكة خبيثة ثم غفوت . لكنني استيقظت من نومي بعد نحو نصف ساعة فجاة كأن أحدهم قد جرني من رجلي ، فاستويت في مجلسي وشرعت اجيل طرفي في الظلام واصيخ السمع وجلا .

كان ثمة قرع لجوج وقوي على البوابة الخارجية ، وحدست انه قرع منذر بالشؤم ... خفت القرع ، وقلقل المزلاج وتناهى إلى سمعي صوت الطباخة وهي تجيب على صوت غير مفهوم ، ثم صعد احدهم على الدرج الذي اخذ يصر ، واجتاز حجرة المكتب ثم قرع باب غرفة النوم

ــ من هناك ؟

ــ انا الممرضة اكسينيا ، قالت ذلك بهمس مفعم بالجلالة ...

ــ ما الأمر ؟

ــ لقد أرسلت آنا نيكولايفنا تطلب منك أن تذهب الى المشفى على جناح السرعة .

ــ ماذا حدث ؟ نطقت هذا السؤال بينما اخذ قلبي يخفق خفقا سريعاً وواضحاً .

لقد احضروا امرأة من قرية دولتسيف ، ولادتها عسيرة .

« هكذا إذاً ، لقد بدأت ... » لقد خطر هذا في ذهني ، واعياني ارتداء الحذاء كيفما جاء واتفق. آه يا للشيطان ! اعواد الثقاب لا تشتعل، لكن ، ولماذا ؟

كان هذا الأمر سيحدث عاجلاً أو آجلاً ، فالطب لا يقتصر على التهاب الحنجرة وقسطرة المعدة .

نهضت من فراشي وقلت :

ـ حسناً ... اذهبي واخبريها انني سأحضر في الحال .

خفقت خطوات اكسينيا وراء الباب ثم قلقل المزلاج من جديد .

لقد قفز النوم من عيني كالبرق ، فأسرعت إلى إضاءة المصباح ، واصابعي ترتجف . واخذت أرتدي ملابسي . الساعة الحادية عشرة والنصف ... ما قصة هذه المرأة وما أمر ولادتها العسيرة ؟ « هم » .. وضعية غير صحيحة .... حوض ضيق ... أو من الممكن شيء آخر اكثر سوءاً . ما اسوأه من أمر اذ لا بد من استخدام الملاقط ، أنرسلها إلى المدينة فوراً ؟ هذا مستحيل ! سيتهامسون فيما بينهم : « يا اله من دكتور » « لا كلام عليه » ... ! لا . حتى أنني لا أملك حقاً في ذلك . يجب ان أفعل كل شيء بنفسي ... لكن ماذا أفعل ؟ الشيطان وحده يعرف . ستكون مصيبتي كبيرة اذا ارتبكت امام القابلات . على أية حال لا بد أن أعاينها قبل كل شيء ولا داعي للقلق مسبقاً ... لبست ، ووضعت المعطف على كتفي ، متمنياً من كل قلبي أن تجري الامور كما يجب ، وهرعت اركض تحت المطر ، فوق ألواح الخشب الموطوءة . ولاحت عربة في العتمة كانت الفرس تضرب بحافريها ألواح الخشب المنخورة .

ـ أأنت من أتى بالمرأة الحامل ؟ سألت ـ دون أن أدري لماذا ـ الشبح الذي كان يتأرجح خلف الفرس .

أجابني صوت عجوز ممتعضاً :

ـ أنا ... ومن يمكن أن يكون ! انا يا ابتاه . . . . .

كانت المشفى ، على الرغم من الساعة المتأخرة في الليل ، تضج حيوية .... وكان المصباح مضاء يتلألأ في قاعة الاستقبال . وانسلت في الممر المفضي إلى غرفـة التوليد اكسينيا من جانبي تحمـل طستاً . وتناهى الى سمعي من خلف الباب انين ضعيف ثم ما لبث أن تلاشى . فتحت ودخلت غرفة التوليد ، انها غرفة صغيرة مطلية طلاء جيداً ومضاءة إضاءة ساطعة بفضل المصباح المعلق في السقف . وتمددت على السرير بجانب طاولة العمليات امراة فتية مدثّرة ببطانية حتى ذقنها ، وكان وجهها مصعراً ، جعده المرض ، والتصقت خصل شعرها الندية بجبينها .

كانت آنا نيكولايفنا تحضر محلولا في الوعاء حاملة ميزان الحرارة بيدها ، اما القابلة الأخرى بيلاجيا ايفانوفنا فقد اخرجت من الخزانة الشراشف النظيفة ، واتكأ مساعدي على الحائط متقمصاً وقفة نابليون ارتعشوا جميعاً عندما راوني ، وفتحت الحامل عينيها وثنت يديها ثم مدتهما من جديد بالم وصعوبة .

ــ ماذا ، ما الأمر ؟ سألت ، وقد دُهِشتُ من نبرة صوتي الهادئة الواثقة الى حد لم أعهده .

اجابت آنا نيكولايفنا بسرعة :

ــ وضعية اعتراضية . وتابعت صب الماء في المحلول .

قلت ماطا الكلمات :

ــ ها ... كا ... ذا ، ماذا إذاً ، فلنعاين ...

صاحت آنا نيكويفنا في الحال :

ــ اغسلي يدي الدكتور يا اكسينيا . كان وجهها احتفاليا وجاداً

كان الماء يسيل مزيلا الرغوة عن اليدين المحمرتين من الفرشاة ..
وحينذاك سألت آنا نيكولايفنا اسئلة تافهة مثل : هل أحضروها منذ وقت بعيد ؟ من أين هي ؟

رمت بيلاجيا ايفانوفنا الغطاء جانباً ، وجلست على طرف السرير اما انا فأخذت أجسّ البطن المنتفخ بهدوء . انّت المرأة وانتصبت ، ثم تشبثت بأصابعها بالغطاء . قلت وأنا اضع يدي بحذر على الجلد المنبسط الحار والجاف .

ــ اهدئي ... اهدئي .. ، اصبري ..

وفي الواقع كانت معاينتي للمريضة نافلة لا ضرورة لها خاصة بعد ان اوحت لي آنا نيكولايفنا صاحبة الخبرة الكبيرة بحقيقة الامر ، ولن استطيع معرفة اي شيء جديد مهما استقصيت وفحصت ، فقد كان حدسها صائباً تماماً . وضعية مستعرضة . لكن ماذا بعد ؟ فهذا امر واضح ماما .

تابعت الفحص . وقد احمر وجهي ، وجسست جهات البطن كلها ، وكنت انظر من زاوية عيني في وجهي القابلتين ، كانتا جادتين مركزتين معاً ، وقرأت في عيونهما استحساناً لشغلي وفي الواقع كانت حركاتي واثقة وصحيحة وحاولت أن اخفي قلقي ما استطعت في أعماقي والا اظهره مهما حدث .

ــ هكذا إذن ــ قلت متنفساً بعمق ونهضت من على السرير ــ بما أننا لن نرى شيئاً من الخارج أكثر مما رأينا ، فلنفحص من الداخل .

ولاح الاستحسان مرة ثانية في عيني آنا نيكولايفنا .

ــ يا اكسينيا ...

مرة أخرى سال الماء .

« آه لو أقرأ دوديرليان(*) الآن » . فكرت بوحشة وأنا أغسل بــدي .

هيهات ، لا يمكن فعل هذا الآن . وماذا يمكن لدوديرليان أن ينفعني في هذه اللحظة ؟ أزلت الرغوة الكثيفة ، ومسحت أصابعي باليود .

هفهف الشرشف النظيف تحت يدي بيلاجيا إيفانوفنا . وانحنيت على الحامل وأخذت أفحصها فحصاً داخلياً وأنا حذر ووجل ، ولمعت في ذاكرتي من حيث لا أدري غرفة العمليات في مشفى التوليد : مصابيح كهربائية حــارة ومضيئة في كرات حليبية ، أرض ذات بلاط رائع ، صنابير وأدوات جراحية براقة متلألئة في كل مكان ، والأستاذ في ثوبه الأبيض الثلجي يعالج بيده الحامل ومن حوله ثلاثة أطباء مساعدين ، وبعض الأطباء المتمرنين وحشد كبير من الطلاب . كان كل شيء جيداً ، مضاء ، وآمناً . أما هنا فأنا الطبيب الوحيد ، وبين يدي امرأة تتعذب ، إنني مسؤول عنها . لكن كيف يمكنني مساعدتها ؟ لا أعرف ، لأنني لم أر عملية توليد عن قرب إلا مرتين في حياتي كلها في مشفى الجامعة ، وهاتان العمليتان كانتا عاديتين تماماً . الآن أقوم بالفحص وهذا لا يهون الأمر عليّ ولا يخفف الألم على الحامل .

إنني لا أفهم شيئاً البتة ولا أستطيع فحصها من الداخل .

لقد حان الوقت لاتخاذ قرار ما .

وضعية اعتراضية ! بما أن الوضعية اعتراضية ، إذاً يجب ... يجب أن ...

---

* دوديرليان : اسم مؤلف الدليل الطبي العام الذي يذكره بولغاكوف في بعض قصصه .

ـ تحويل قـدمي . قالت آنا نيكولايفنا التي نفد صبرها وكأنها تحدث نفسها .

كان يمكن لطبيب قديم خبير أن يعبس في وجهها لأنها تحشر انفها باستنتاجاتها المتسرعة قبل ان يبدي الطبيب رأيه، لكنني إنسان متسامح لا أتحسس كثيراً .

ـ نعم . ـ أكدت بثقة ظاهرة ـ تحويل قدمي .

ولاحت أمام عيني صفحات دوديرليان : تحويل مباشر ... تحويل مركب ... تحويل غير مباشر .

صفحات وصفحات .. وعليها رسومات ، حوض ، أجنة مضغوطة معوجة برؤوس ضخمة ، يد متدلية معلقة بأنشوطة ...

قرأت هذا منذ زمن ليس ببعيد ، بل لقد وضعت خطوطاً تحت كل كلمة متمعناً فيها . وتصورت ذهنياً العلاقة بين الأجزاء وأسلوب العلاج كله . وقد تهيأ لي وقتها أن النص قد طبع برمته في دماغي . أما الآن فلا أذكر من كل ما قرأت إلا عبارة واحدة :

... الوضعية الاعتراضية هي وضعية ولادة عسيرة جداً .

الحقيقة هي الحقيقة ، وضعية ولادة عسيرة جداً ، ليست عسيرة على المرأة فقط ، بل على الطبيب الذي أنهى دراسته الجامعية منذ ستة أشهر فقط . قلت وأنا أنهض :

ـ حسناً ، سنفعل كل شيء .

انتعش وجه آنا نيكولايفنا . وأشارت الى مساعدي ديميان كوكتيش أن يحضّر الكلوروفورم .

رائع انها اشارت بذلك فلم اكن متأكداً تماماً أن العمليـــة تُجرى بالتخدير . بالتخدير طبعاً . وكيف يكون غير ذلك !

على كل حال لا بد من مراجعة دوديرليان ...

قلت بعد أن غسلت يدي :

ــ حسناً ! حضّروا المخدر ، وأرقدوها ، وسأعود حالاً ساحضر سجائري من البيت فقط .

اجابت آنا نيكولايفنا :

ــ حسناً يا دكتور . ففي الوقت متسع .

نشفتُ يديَّ ، ووضعت الممرضة المعطف على كتفي ، ثم ركضتُ نحو البيت دون ان أدخل يدي في الكمّين .

اضأت المصباح في غرفة المكتب ، واتجهت ، دون أن أنزع القبعة ، نحو رفوف المكتبة .

ــ هذا هو دوديرليان . « علم التوليد الجراحي » .

أخذت أقلب الصفحات الصقيلة بسرعة .

... تُعَرّضُ عملية التحويل الأم للخطر

تسلل البرد إلى ظهري على طول العمود الفقري .

ينحصر الخطر الأساسي في إمكانية تمزق الرحم تلقائياً .

تلـ ... ـقا ... ئـ ... ـياً ...

... إذا واجه الجراح عند إدخال اليدين في الرحم صعوبة في الوصول إلى الرجلين بسبب عدم كفاية التسع الناتج عن تقلص جدران الرحم ، فعليه عدم متابعة المحاولات لتحقيق التحويــل .

حسنا ! هلا إذا استطعت بفضــل اعجوبة مــا ، أن أحدد هذه « الصعوبة » وقتها لن أقدم على « متابعة المحاولات » . لكن ما عساي افعل إن كنت سأقوم بمعالجة امرأة مخدرة من قرية دولتسيف ؟

... يحظر قطعياً محاولة الوصول إلى القدمين من محاذاة ظهر الجنين ...

سنأخذ هذا بعين الاعتبار .

يعدّ الإمساك بالرجل العليا خطأ لأنه قد يؤدي الى التواء عمود الجنين الفقري ، وهذا يفضي الى صعوبات كبيرة في سحب الجنين ، مما يتمخض عنه عواقب وخيمة .

« عواقب وخيمة » يا لها من كلمات ضبابية ، لكنها مع ذلك شديدة الإيحاء ! لكن ماذا سيحدث لو أصبح زوج المرأة الدولتسيفية أرمل ؟ نشفت العرق عن جبيني ، واستجمعت قواي ، وحاولت التركيز على الأشياء المهمة فقط : اي ماذا يجب عليّ أن افعل وكيف والى أين ادخل يدي . لكن وعلى الرغم من تجاوزي البعض الأسطر السود التي لا يمكن قراءتها ، فقد لا التقيت بأشياء جديدة مخيفة ، كانت تقفز الى عيني .

... نظراً لخطر التمزق الهائل ...

... التحويل الداخلي المركب هو إحدى عمليات التوليد الجراحية الخطرة على الأم .

وفي النهاية :

... مع كل تأخير يتضاعف الخطر .

هذا كاف ! لقد أتت القراءة أكلها ، إذ اختلطت الأشياء في رأسي اختلاطاً تاماً ، واقتنعت للحظة انني اجهل كل شيء . ولاسيما التحويل الذي ساجريه : مركب ، غير مركب ، مباشر ، غير مباشر ....

تركت دوديرليان وارتميت على الاريكة محاولا ترتيب أفكاري المتناثرة ما استطعت ثم نظرت الى الساعة . آه يا للشيطان ! ظهر انني في الغرفة منذ اثنتي عشرة دقيقة بينما ينتظرونني هناك ..

... كل ساعة تأخر ...

تتكون الساعة من دقائق ، وتنقضي الدقائق في حالة كهذه بسرعة شـديدة .

طرحت دوديرليان جانباً ، وركضت عائداً الى المشفى .

كان كل شيء جاهزاً هناك . ووقف مساعدي عند الطاولة وقد أعدّ القناع وقارورة الكلوروفورم .

تمددت الحامل على طاولة العمليات تئن انيناً متواصلاً ينتشر في أنحاء المشفى . قالت بيلاجيا إيفانوفنا بصوت وديع وهي تنحني على الحامـل :

ـ أصبري ، اصبري ، سيساعدك الدكتور الآن .

ـ آخ ، لا استطيع.... لا أستطيع.... لن أستطيع الصبر ...!

قالت القابلة :

ـ لا تخافي ... لا تخافي ، سنعطيك الآن ما تشمينه وبعدها لن تسمعي شيئاً .

سال الماء من الصنبور مصدراً خريراً ، فأخذنا أنا ، وآنا نيكولايفنا ننظف ايدينا المكشوفة حتى المرافق ونغسلها ... وراحت آنا نيكولايفنا تخبرني ، ـ بينما كان انين المريضة وصراخها يملآن الأرجاء ـ كيف كان الجراح الخبير الذي عمل قبلي في المشفى يجري عملية التحويل . كنت اسمعها متلهفاً ، محاولا الا افوت كلمة واحدة .

لقد علمتني هذه الدقائق العشرة أكثر مما تعلمت من علم التوليد عندما اجتزت الامتحانات بتقدير « ممتاز » .

لقد عرفت من الكلمات المتقطعة ، والجمل الناقصة ، والملاحظات المرمية بشكل عابر ، الأشياء الأساسية التي لا يمكن العثور عليها في اي كتاب طبي . إضافة إلى ذلك فقد تملكني في تلك اللحظة ـ عندما أخذت امسح يـدي المناليتين النظيفتين الناصعتين بالشاش المعقم ـ الحزم وتوضحت في ذهني الخطوات المحددة والثابتة التي سأقوم بها ، تحويل مركب أو غير مركب ... لا ضرورة للتفكير الآن .

كل هذه الكلمات العلمية لا طائل تحتها في هذه اللحظة . المهم شيء واحد فقط :

أن أولج يداً في الداخل بينما استخدم الثانية للقيام بالتحويل من الخارج .. وليس الاعتماد هنا على الكتب بـل على التقدير الصحيح والحركة المناسبة التي لا يصلح الطبيب بدونهما لأي شيء . نواظب ولكن في منتهى الحذر على خفض ساق الجنين الى الأسفل لانتشاله منها .

يجب أن اكون هادئاً وحذراً ، وفي الوقت ذاته في منتهى الحزم والشجاعة .

– هيا ! أمرت مساعدي ومسحت يديّ باليود .

طوت بيلاجيا إيفانوفنا في تلك اللحظة يدي الحامل وغطى مساعدي وجهها المتوجع بالقناع .

أخذت اقطر الكلوروفورم ببطء من الزجاجة الصفراء الغامقة اللون فانتشرت في الغرفة رائحة مقززة والخزة تبعث على الإقياء . وغدت وجوه القابلتين والمساعد صارمة منهولة .

– آي آي ، صرخت المرأة فجأة وحاولت بتشنج وحرقة ، الثوان نزع القناع .

– تماسكي .

وامسكتها بيلاجيا إيفانوفنا من ساعديها فثنتهما ووضعتهما على صدرها . فصرخت المرأة عدة مرات محاولة إبعاد القناع عن وجهها ، لكن صراخها اخذ يخبو شيئاً فشيئاً ... إلى أن همهمت :

– ها – آ – دعوني آ ...

واستمرت همهماتها بالتلاشي حتى أطبق الصمت في الغرفة البيضاء .

كانت النقاط التي لا لون لها تتساقط وتتساقط على الشاش الأبيض ..

– النبض يا بيلاجيا إيفانوفنا ؟

– حسناً .

ورفعت بيلاجيا إيفانوفنا يد المرأة ثم تركتها ، فهوت ميتةً كالعود الذابل فوق الشرشف . فأبعد مساعدي القناع وفحص حدقة عينها .

ـ لقد نامت .

. . . .

. . . .

غاصت يداي في بركة دم حتى المرفقين . وأخذ الدم يسيل على الشرشف ممزوجاً ببعض القطع المتخثرة ، وتناثر الشاش المحمر في كل مكان . اما بيلاجيا إيفانوفنا فأخذت تهزّ الوليد وترِبّت على ظهره بينما كانت اكسينيا تقرقع بالدلاء ، لتملأ الطست بالماء ؛ ثم اخذوا يغطسون الوليد في الماء الحار تارةً وفي البارد تارة اخرى . كان ساكناً ورأسه هامد بلا حياة وكأنه معلق بخيط يتارجح من ناحية إلى اخرى . وفجأة سَمِعَ صوت لا يشبه اي صوت وزفرة لا تشبه اي زفرة ثم تناهى إلى أسماعنا صوت ضعيف مبحوح هو الصراخ الأول .

صاحت بيلاجيا إيفانوفنا :

ـ إنّه حيّ ، حيّ . ثم مددت الوليد على الحشيّة . والأم حية ايضا . لحسن الحظ لم تحصل مضاعفات خطرة ، ساجس نبضها بنفسي . إنه متوازن ودقيق . وأخذ مساعدي يهز الوالدة برفق من كتفها ويقول :

ـ هيا ! استيقظي يا خالة ، يا خالة .

القوا الشراشف المدماة جانبا وغطوا الأمّ بسرعة بالشراشف النظيفة ثم نقلها مساعدي واكسينيا الى العنبر واخذوا الوليد محمولا على الوسادة ... كان وجه الوليد الصغير الأسمر المجعد يطل من فتحة اللفافة ، مطلقا بكاء رقيقا لا ينقطع .

سال الماء من الصنابير غزيرا ، وسحبت انا نيكولا لايفنا بشوق نفسا طويلا من سيجارتها ثم اطبقت جفنيها من اثر الدخان وسعلت .

ـ آه يا دكتور ! لقـد انجزت التحويل بطريقة رائعـة ، وبثقـة لا متناهية .

وشرعت انظف يدي بالفرشاة بجدية ، وانظر إليها من زاوية عيني: الا تسخر مني يا ترى ؟ لكن ، ارتسمت على وجهها تعابير صادقة معتزة راضية .... فامتلأ قلبي بالغبطة ، وانا انظر الى الفوضى البيضاء المدماة من حولي ، الى الماء الاحمر في الطست ، وشعرت بنفسي منتصرا . غير أن وسواسا من الشك أخذ يثور في أعماقي .

قلت : ـ سنرى فيما بعد ماذا سيحدث . فنظرت إلي آنا نيكولايفنا مندهشة :

ـ ماذا يمكن ان يحدث ؟ كل شيء على ما يرام .

فتمتمت مجيبا بكلمات غامضة :

ـ لقد كنت ـ في الحقيقة ـ أود أن أقول : هل كل شيء على ما يرام بالنسبة إلى الأم ؟ الم اؤذها اثناء العملية ؟ « .. هذا هو الشيء الذي كان يمزق قلبي . إذ إن معرفتي بعلم التوليد ما هي إلا مقتطفات جمعتها من الكتب وهي أبعد ما تكون عن معرفة الحاذق المختص . التمزق ؛ لكن كيف يمكن معرفته ؟ ومتى ستتاح لنا إمكانية اكتشافه ؟ الآن يا ترى أم يمكن أن تكون فيما بعد ؟... الأفضل أن اكف عن هذا الموضوع الآن » .

ـ لكن ، قد يحدث ، قلت ، هناك إمكانية العدوى . وكررت العبارة الأولى من أحد الكتب الجامعية .

ـ آه هكذا ـ قالت آنا نيكولايفنا وهي تمط الكلمة . لن يحدث مكروه إن شاء الله ، ومن أين ؟ كل شيء نظيف ومعقم .

كانت الساعة الثانية في بدايتها عندما عدت الى بيتي فميزت في بقعة ضوء من المصباح على الطاولة في غرفة المكتب ، دويرليان المفتوح بسلام على صفحة « مخاطر التحويل » وتذكرت كيف جلست منذ ساعة أعب الشاي البارد واقلب صفحاته . عندئذ حدث شيء طريف : كل الأسطر التي لم يكن بإمكاني قراءتها اصبحت مفهومة تماماً بعد ان اضيئت إضاءة جيدة ، وفهمت في نهاية المطاف هنا في ضوء المصباح في ليل هـذا الريف النائي ما تعنيه المعرفة الحقيقية .

« التجربة الكبيرة » تتحقق في القرية ــ فكرت وانا انام ــ لكن لا بد من القراءة ايضا ، القراءة اكثر فاكثر .

* * *

العاصفة الثلجية

إما انتعوي كوحش مفترس
او تبكي كطفل صغير

بدأت هذه القصة ــ بحسب ما تقول اكسينيا التي تعرف كل شيء ــ عندما وقع المحاسب (بالتشيكوف) الذي يقطن في قرية (شالوميتوفا) في حب ابنة المهندس الزراعي. كان حباً ملتهباً انهك قلب العاشق التعس سافر الى (غراتشيفو) ــ وهي مركز القضاء ــ فاشترى لنفسه طقماً رائعاً جداً ، ومن المحتمل أن تكون الخطوط الرمادية على بنطال المحاسب هي التي قررت مصير هذا الرجل البائس ، فقد وافقت ابنة المهندس الزراعي أن تصبح زوجة له .

أما أنا فما زلت طبيب مشفى (نيكولسك) الواقعة في طرف قصي من أطراف المحافظة ، وقد أصبحت مشهوراً جداً بعد أن بترت رجل فتاة وقعت في محلج الكتان ، حتى كدت أقتل من وطأة المجد والشهرة .

أصبح يأتيني إلى العيادة عبر الطريق الممهدة لعربات التزلج على الثلج نحو مئة مريض من الفلاحين يومياً ، حتى لم يعد يتبقى لي وقت لتناول الغداء . إن علم الحساب علم صارم جداً ، فلنفترض انني اقضي مع كل مريض من زبائني خمس دقائق فقط ... خمساً !! فإن كل خمسمئة دقيقة تساوي ثماني ساعات وعشرين دقيقة . على نحو متواصل انتبهوا ! وفضلا على ذلك عندي قسم للمرضى المقيمين في المشفى يتسع للثلاثين شخصاً ، إضافة إلى انني أجري العمليات الجراحية .

كنت ، باختصار ، أعود من المشفى في التاسعة ليلا ، فاقداً الرغبة في الأكل أو الشراب أو النوم ، فاقداً الرغبة في كل شيء ، سوى رغبة واحدة هي الا يأتي أحدهم ليدعوني إلى عملية توليد ، فقد أخذوني في الأسبوع الاخير خمس مرات في الليل عبر طرق التزلج الثلجية .

ظهرت غشاوة رطبة ومعتمة في عيني ، وظهرت غضون عمودية تشبه الدودة ما بين عيني . وحلمت في الليل ــ عبر الضباب المتقلب ــ بعملية جراحية مخفقة : أضلاع عارية . ويداي مغموستان بالدم البشري ، فاستيقظت وأنا أشعر بالبرد ، وباللزوجة تعم جسدي على الرغم من اشتعال الموقد الهولندي .

كنت أمشي في الجولة التفقدية مشية مندفعة ، ويجر مساعدي ومساعدتي وممرضتان أرجلهم ورائي . وتوقفت فجأة عند سرير تمدد فوقه مريض ذاب في حرارته ، وتنفس تنفساً شاكياً ، فعصرت من ذهني كل شيء فيه ، ولمست بأصابعي جلده الجاف ، ونظرت في حدقته ثم ربت على أضلاعه ، وسمعت كيف كان قلبه ينبض خفية . وفكرت بشيء واحد فقط ، كيف يمكنني إنقاذه ؟ وكيف يمكنني إنقاذ هذا وذاك والجميع .

كانت المعركة تبدأ كل صباح على ضوء الثلج الباهت ، ولا تنتهي إلا بتلألؤ ضوء المصباح الأصفر الساطع. قلت في نفسي بعد أن رجعت إلى غرفتي ليلا : كيف ينتهي هذا كله ؟ أتمنى أن أعرف . فالمراجعون سيأتون عبر طرق التزلج الثلجية في كانون الثاني وشباط وآذار .

كتبت إلى المركز في (غراتشيفكو) ، وذكرت بأدب جم أن منطقة (نيكولسك) تحتاج إلى طبيب ثان . وسافرت الرسالة ، على طريق مرصوص عبر محيط من الثلج ، مسافة أربعين فرسخاً . وجاء الجواب بعد ثلاثة أيام ، كتبوا : انه ... بالطبع ، حتماً ... بالطبع لكن ليس الآن ، إذ لا يلتحق أي طبيب الآن ... ثم ختموا الرسالة ببعض التقريظ الطيب لعملي مع التمنيات بالنجاح المستمر .

احيا تشجيعهم آمالي ، فتابعت وضع الضمادات القطنية ، وحقن المصول ضد الخانوق ، وإجراء عمليات للدمامل الكبيرة ، وتجبير الكسور بالربطات الجبسية .

يوم الثلاثاء لم يأتني مئة مراجع فحسب ، بل وصل العدد إلى مئة وخمسة عشر ، وانهيت المعاينات في الساعة التاسعة مساء ، وغفوت وانا احاول أن أخمن كم سيكون عدد المراجعين غداً ، ثم حلمت أن عددهم قد بلغ تسعمئة مراجع .

أطل الصباح عبر النافذة الصغيرة لغرفة النوم أبيض على نحو غير مألوف ، ففتحت عيني دون أن أفهم سبب استيقاظي ، ثم فهمت : انه القـرع .

ـ يا دكتور ! هل استيقظت ؟

وعرفت الصوت ، إنه صوت القابلة (بيلاجيا ايفانوفنا) .

فاجبتها ، وانا بين الحلم واليقظة بصوت متوحش :

ـ نعـم .

ـ أتيت لأقول لك ألا تستعجل ، اذ لم يحضر الى المشفى غير شخصين .

ـ ماذا بك ؟ اتمزحين ؟!

ـ لا ، أقول الصدق ، انها العاصفة . وكررت ذلك بفرح عبر ثقب الباب :

إنها العاصفة الثلجية يا دكتور . أما الاثنان اللذان حضرا فأسنانهما منخورة وسيقلعها ديميان لوكتيتش .

ــ يا له من ... ثم قفزت من سريري دون أن أعرف السبب . يا له من طقس رائع !

اخذت أمشي واطوف في مسكني الفاخر طوال النهار (كان بيت الطبيب مؤلفاً من ست غرف ، ولسبب ما من طابقين ، ثلاث غرف في الأعلى وثلاث اخرى في الاسفل مع المطبخ) ، ورحت أصفر موسيقا أو برالية ، وأدخن ، وانقر على شباك النافذة ... وخلف الشبابيك حدث شيء لم أر مثله في حياتي كلها : لم يكن ثمة سماء ولا أرض أيضاً ؛ كان البياض يدور ويلتف متعرجاً متمايلاً طولاً وعرضاً ، وكأن الشيطان يلهو بمسحوق الأسنان الأبيض . وفي نهاية النهار أصدرت أمري لاكسينيا التي تقوم بمهام الطبخ والتنظيف في شقة الطبيب ، كي تملأ ثلاثة دلاء ماء ، وكي تغلي الماء في المرجل ؛ إذ إنني لم استحم منذ شهر .

أخرجت بمساعدة اكسينيا طستاً كبيراً مترامي الأطراف من غرفة المؤونة ، ووضعناه في المطبخ ، (الحديث عن الحمامات في (نيكولسك) شيء مستحيل فهي موجودة في المشافي الكبيرة فقط ، وحتى هناك تكون معطلة) .

هدأ في الساعة الثانية اهتزاز الشبكة الحديدية في النافذة . وجلست في الطست عارياً ، ورغوة الصابون على رأسي .

ــ هـذا رائع ....! ــ تمتمت بلذة وانا أصب الماء الحار على ظهري ــ رائع ، رائع ، بعد ذلك ــ أتعرفون ؟ ــ سنتناول طعام الغداء ، ثم ننام ؛ وإذا شبعت نوماً فلن يكون مهماً ان يأتي الى العيادة غداً مئة وخمسون مراجعاً .

ــ ما الأخبار يا اكسينيا .

ــ سيتزوج المحاسب في ضيعة (شالوميتوفا) .

ـ صحيح ؟ ! وهل وافقت ؟

ـ والله ! وغنّت أكسينيا وهي تقرقع بالدلاء : ها ... ش ... قـة ...

ـ وهل الخطيبة جميلة ؟

ـ اجمل الجميلات ، شقراء رشيقة القد .

ـ قولي من فضلك .

وفي تلك اللحظة قرع الباب ؛ فصببت الماء على جسمي غاضباً ، واصخت السمع .

قالت أكسينيا بصوت مرتفع :

ـ الدكتور يستحم .

وقرقع صوت جهير بور ... بار ...

ثم قالت لي أكسينبا عبر ثقب الباب :

ـ هذه رسالة لك يا دكتور .

ـ افتحي الباب قليلاً .

وخرجت من الطست منقبضاً ، وساخطاً على قدَري ، ثم أخذت من يد أكسينيا مظروفاً رطباً مهلهلاً .

قلت لنفسي بثقة ضعيفة :

ـ كلا ، مستحيل ، لن أخرج من هذا الطست بتاتاً ، فانا إنسان أيضاً ، ثم فضضت المظروف وانا في الطست .

« زميلي العزيز (إشارة تعجب كبيرة)، أتضرع (مشطوبة) ، أرجوك رجاءً شديداً أن تحضر بسرعة . فقد فقدت المرأة وعيها ، وهي تنزف نتيجة الضربة قوية على الرأس من تجويف (مشطوبة) انفها وفمها . لا أستطيع تدبر الأمر ، نبضها سيء . يوجد كافور . الدكتور (التوقيع غير واضح) » .

فكرت بحزن وانا اتأمل الحطب الملتهب في الموقد : « ما أسوأ حظي في هذه الحياة ! » .

– هل أحضر الرسالة رجل ؟

– نعم رجل .

– دعيه يدخل إلى هنا .

دخل الرجل فبدا لي كأنه رجل من العصر الروماني القديم ، بسبب خوذته الفاخرة التي يضعها فوق القبعة ذات الأذنين ، وقد ارتدى معطفاً من فرو الذئاب .

لسعتني لفحة برد .

سألته وأنا اغطي جسدي الذي لم ينظف تماماً :

– لماذا تضع الخوذة ؟.

فاجاب الرجل الروماني :

– أنا رجل إطفاء من (شالوميتوفا) .. والآن وقت مناوبتي ..

– من الدكتور الذي كتب الرسالة ؟

ـ إنه ضيف عند مهندسنا الزراعي ، طبيب شاب . لقد حلت بنا مصيبة كبيرة ..

ـ ومن هي المرأة ؟

ـ إنها خطيبة المحاسب .

تأوهت اكسينيا من خلف الباب .

ـ ما الذي حدث لها ؟ (كان مسموعاً كيف التصق جسد آكسينيا بالباب) .

ـ البارحة كانت الخطبة ، وبعد الخطبة أراد المحاسب ان ينزّه خطيبته على عربة التزلج ، فاسرج الحصان ، وربط المزالج ، واركبها في المزلجة حتى الباب الخارجي ، وهناك قفز الحصان من مكانه قفزة جامحة فرمى الخطيبة وارتطم جبينها بالعضادة . وهكذا كان ... يالها من مصيبة لايمكن التعبير عنها بالكلمات ... إنهم يركضون وراء المحاسب في كل مكان كي لا ينتحر ، لقد جنّ .

قلت شاكياً :

ـ لكنني استحم ، لماذا لم تأتوا بها إلى هنا ؟

وصببت الماء على رأسي فذهبت رغوة الصابون في الطست .

أجاب رجل الإطفاء بتأثر عميق ، وقد ثنى يديه كأنه يصلي :

ـ هذا مستحيل أيها الطبيب المحترم ، لم نستطع ذلك ، ستموت الفتاة .

ـ وكيف نستطيع السفر ؟ والعاصفة !

ـ لقد هدأت ، ماذا بك ؟ لقد هدأت تماماً ، ثم إن الجياد سريعة ومصفوفة بعضها وراء بعض ، سنصل إلى هناك في ظرف ساعة ..

اطلقت أنيناً مقتضباً ، ثم خرجت من الطست ، وصببت دلوين من الماء على جسدي بحذر ، وجلست القرفصاء قرب نار الموقد مقرباً رأسي من النار ليجف شعري قليلاً . « بعد رحلة كهذه لابد أن أصاب بالتهاب الرئتين ، بل بالتهاب رئوي فصيّ حاد . لكن . الأهم من ذلك هو ماذا سأفعل بها ؟ من الواضح ـ بحسب الرسالة ـ أن هذا الطبيب أقل خبرة مني . لكنني لا أعرف شيئاً ، ولم اكتسب خلال نصف عام إلا بعض المعارف العملية ، أما هو فاقل . يبدو واضحاً أنه تخرج من الجامعة للتو ، وأنه يظنني طبيباً مخضرماً .. » . لم الاحظ ، وأنا أفكر على هذا النحو ، كيف ارتديت ملابسي التي لم تكن بسيطة بتاتاً ، سروال وبلوز وجزمة شتوية طويلة ، فوق البلوز جاكيت جلدي وفوقه معطف ثم فروة من جلد الخروف ، وقبعة ، وجهزت حقيبتي التي حوت : الكافيئين والكافور والمورفين والأدرينالين ، وملاقط ، ومواد معقمة ومحقنة ومسباراً ومسدساً من طراز براونينغ ، وسجائر وكبريتاً وساعة وسماعة .

بدا الأمر غير مخيف البتة على الرغم من العتمة التي ذوبت النهار .

عندما صرنا خارج سياج القرية ، كانت العاصفة تصفر صفيراً ضعيفاً منحرفة باتجاه الخدّ الأيسر . وحجب رجل الإطفاء بجسده الضخم عني كفل الجواد الأول . كانت جيادنا قوية فعلاً ، تمشي بحيوية ونشاط ، وتجرّ الزلاجات التي اندفعت في الأرض الوعرة . تكومت داخل العربة فاستدفأت بسرعة ، وفكرت بالتهاب الرئتين الغشائي ، وبإصابة الفتاة ، فقد تكون أصيبت بارتجاج في عظام الجمجمة من الداخل ، وانغرزت شظية في الدماغ .. سألت عبر ياقة الفرو :

ـ أجياد للإطفاء هذه ؟

ـ نعم ، نعم . أجاب الحوذي دون أن يلتفت .

ـ وماذا فعل لها الطبيب ؟

ـ آ ، نعم ، أو ، هو ، أتعلم ؟ إنه مختص بالأمراض التناسلية نعم .. نعم .

كانت العاصفة تعوي في الدغل (هو ـ هو) ثم أخذت تصفر صفيراً متقطعاً من الجانب ناثرة الثلج ، ثم اشتدت بسرعة فأخذت تهزني وتهزني حتى صرت في حمامات (ساندوفسك) بموسكو ، حيث دخلت بفروتي إلى غرفة المشلح مباشرة ، ثم إلى غرفة البخار حيث غرقت في عرقي . فيما بعد اشتعل نبراس ، ولفحني البرد ، ففتحت عيني فرأيت خوذة حمراء تتلألأ ، فظننت أن ثمة حريقاً ، وعندما انتبهت فهمت أننا وصلنا وأن العربة عند عتبة بيت أبيض ذي أعمدة ، مبني على ما يبدو في عهد (نيكولاي الأول) . كان الظلام دامساً حولي . وحضر لاستقبالي رجال الإطفاء الذين يرقص اللهب فوق رؤوسهم . عندها سحبت الساعة من جيب الفروة ونظرت : كانت الساعة قد بلغت الخامسة . إذاً لقد مشينا ساعتين ونصفاً . وليس ساعة واحدة فقط . عبرت المدخل نصف نائم مبتلاً ، وكأنني في لفافة داخل سترتي الجلدية .

بهر ضوء المصباح عينيّ من الجانب ، وانعكست أشعة ضوئه على الأرض الملونة ، وهنا ركض نحوي شاب أشقر الشعر متعب العينين يرتدي سروالا مكوياً للتو ، وكانت ربطة عنقه ذات الدوائر السود متلبدة في إحدى الجهات ومنحشرة في الصدرية كحدبة ، وكانت بزته قشيبة جديدة مكوية ، ولكأن ثنياتها من المعدن . لوّح الشاب بيديه ثم التصق بي وتشبث بفروتي وهزني وهو يصرخ :

ـ عزيزي ، يا دكتور ... أسرع ، ستموت ، أنا القاتل ـ ونظر إلى مكان ما على جانبه فاتحاً عينيه بقوة سوداوية ـ ثم قال لأحدهم :

ـ انا القاتل ، نعم هكذا . ثم اخذ ينتحب ، وامسك بشعره الخفيف يشده ورأيت كيف كان يقتلع خصل شعره فعلا ، ويلفها على اصابعه .

ـ كف عن هذا . قلت له وضغطت على يده .

شغل رجل انتباهه ، وتراكضت بعض النسوة . واخذ رجل آخر فروتي . وقادوني عبر الممرات المزينة نحو السرير الأبيض ، نهض الطبيب لملاقاتي ، كانت عيناه متعبتين ذاهلتين ، وظهرت فيهما للحظة ملامح الدهشة إذ رآني شاباً مثله . وعموماً فقد كنا متشابهين إلى حد كبير ، صورتين لوجه واحد من عمر واحد . لكنه فرح فيما بعد لحضوري حتى كاد يطير .

ـ ما أسعدني .... يا زميلي ! ... هكذا ... اترى ؟ النبض ينخفض ، انا ـ في حقيقة الأمر ـ مختص بالامراض التناسلية . انني سعيد جداً لمجيئك .

كان ثمة محقنة وبضع حبابات من الزيت الاصفر وضعت على قطع من الشاش فوق الطاولة .

تناهى إلى سمعي بكاء المحاسب عبر الباب المحكم الاغلاق ، وظهرت هيئة امرأة ترتدي الأبيض عند كتفي . كانت غرفة النوم مضاءة نصف إضاءة ، وقد غطوا المصباح من الجانب بقماش أخضر . وتحت الضوء الأخضر توسد المخدة وجه أصفر اللون . شعر اشقر تفرق وتدلت خصلة فوق الوجه . كان الأنف حاداً . وامتلأت فتحتاه بقطن غدا احمر من النزف .

همس لي الطبيب : ـ النبض ....

وتناولت اليد الميتة بحركة اعتيادية وضغطت بأصابعي فارتعشت كان النبض تحت اصابعي ضعيفاً وسريعاً ثم اخذ يتقطع وبعدها اصبح

خيطيا . شعرت ببرد اعتيادي في بطني ــ كما كان يحدث عادة عندما كنت ارى الموت عن قرب ــ إنني أكره الموت . واستطعت كسر حبابة الزيت الكثيف وسحبها في المحقنة ، وعبثا حقنت الفتاة في يدها حقنا ميكانيكيا ، فاختلج فكها الأسفل ثم ضغط على الأعلى، ثم تدلى، وارتعش الجسد تحت الغطاء وكأن البرد لسعه . ضعف النبض تحت إصبعي ثم تراخى الى ان اختفت النبضة الاخيرة . همست في اذن الطبيب :

ــ لقد ماتت .

القت الهيئة البيضاء ، ذات الشعر الاشيب بنفسها فوق غطاء السرير الرتيب وتشبثت به وهي ترتجف .

ــ اهدئي ، اهدئي ! ــ قلت في أذن المرأة ذات اللباس الابيض اما الطبيب فمال نحو الباب متألما وقال بصوت خفيض :

ــ إنه يعذبني .

عندها تركنا الأم الباكية في غرفة النوم ، ولم نقل شيئا لأحد ، ثم قدنا المحاسب الى غرفة بعيدة .

ــ إذا لم تتركنا نحقنك بهذا الدواء ، فإننا لن نستطيع فعل اي شيء . إنك تعذبنا وتعيق عملنا. عندها وافق وخلع جاكيته وهو يبكي بهدوء ، فرفعنا ذراع قميص الخطبة الاحتفالي وحقناه بالمورفين ، ثم ذهب الطبيب الى غرفة المتوفاة وكأنه يريد مساعدتها ، ووقفت انا عند المحاسب الذي ساعده المورفين اكثر بكثير مما كنت اتوقع ، إذ اخذ بعد ربع ساعة يبكي ويهذي بصورة اهدا ، ثم وضع وجهه الباكي على يديه ونام ، ولم يعد يسمع الجلبة والعويل والصراخ الذي يصم الآذان ...

قال لي الطبيب في الدهليز همسا :

ــ اسمع يا زميلي إن السفر خطير جداً ، ومن المحتمل أن تضيعوا، ابق وبت هنا ....

ــ لا ، لا ، لا استطيع ، سأسافر مهما كلف الأمر ، فقد وعدني أصحاب البيت أن يعيدونني الآن .

ــ نعم سيعيدونك . لكن الا ترى ...

ــ عندي ثلاثة مصابين بالتيفوس لا يمكن تركهم ، ويجب أن أعاينهم في الليل .

ــ الأمر لك إذاً .

مزج الكحول ببعض الماء وأعطاني كي اشرب . وهناك في الدهليز أكلت قطعة لحم ، فشعرت بدفء داخلي ، وبذهاب الحزن عن قلبي بعض الشيء . ثم عدت للمرة الاخيرة الى غرفة النوم ، والقيت نظرة على المتوفاة ، وذهبت بعدها الى غرفة المحاسب حيث تركت حبابة من المورفين للطبيب الشاب ، وخرجت متدثراً نحو الباب . وهناك عوت العاصفة ، وطأطأت الجياد المغطاة بالثلج رؤوسها ، وتأرجح ضوءالمشعل

سألت وأنا اغطي فمي :

ــ اتعرف الطريق ؟

فأجاب الحوذي بحزن شديد (ولم تكن الخوذة على رأسه)

ــ نعم أعرفه ، لكن تستطيع قضاء الليلة هنا ...

كان واضحاً ــ حتى في أذني قبعته ــ انه لا يرغب بالسفر إطلاقاً .

وأضاف الشخص الثاني الذي يمسك بالمشعل المغيظ :

ــ الافضل ان تبقى فالطرقات سيئة .

فصرخت بصوت عال :

ــ سنسافر إنها اثنا عشر فرسخاً لا غير . عندي مرضى حالتهم سيئة . ثم اندسست في المزلجة .

أقر ــ وهذا ما لم أقله بعد لأحد ــ ان فكرة البقاء في بيت تحل فيه المصيبة ، وتخور فيه قواي ، وتنعدم فائدتي ، بدت لي غير محتملة .

هوى الحوذي بلا أمل على مقعده ، وتهادى ثم اعتدل ، وقفزت الجياد خارج الباب الخارجي ، فاختفى المشعل وكأنه ابتعد أو انطفأ ، وخطر في ذهني بعد دقيقة ان التفت إلى الخلف . فالتفت بصعوبة ، ولاحظت ان المشعل لم يختف وحده ، بل اختفت (شالوميتوفا) برمتها ، بكل جهاتها كما لو انها كانت في الحلم . فوخزني ذلك وخزاً مؤلماً .

ــ لكن ، هذا رائع ..... ــ ليس هذا ما أفكر به ، وليس هذا ما قلته . خبات أنفي ثانية وغطبته حتى أصبح الأمر مزعجاً . لقد التف الكون كله في كتلة واحدة واخذت العاصفة تهزها من كل الجهات. واندفعت الى رأسي فكرة :

ــ أو ليس الافضل أن نعود ؟

لكنني طردتها وحشرت نفسي في القش في قاع المزلجة ، كما لو أنني في زورق ، وانحدرنا ، فأطبقت جفني ، وتذكرت فوراً الوجه الأبيض والمصباح المغطى بخرقة خضراء ، وغدا كل شيء واضحاً في ذهني فجأة : « إنّه كسر في قاعدة الجمجمة ... نعم نعم ... هكذا بالضبط . وازدادت ثقتي أن هذا التشخيص صحيح . إنه الإلهام . ولكن ما

الفائدة ؟ لا فائدة من معرفة هذا الآن ، بل لم يكن ثمة فائدة من قبل ، وماذا تفعل بهذه المعرفة ؟ يا لله من قدر مخيف ! ! إنه لمن السخيف والرهيب أن يعيش المرء هذه الحياة ! ماذا سيحدث يا ترى في بيت المهندس الزراعي ؟! إن التفكير في هذا يبعث على الحزن والامتعاض .

اخذت اشفق على نفسي من حياتي الصعبة ، فالناس نيام الآن والمواقد مشتعلة ؛ اما انا فلم استطع ان اتم استحمامي ، تحملني العاصفة كورقة ، وهكذا سأصل الى البيت ، وهناك لن يكون الأمر أفضل ، فسيأخذونني من جديد الى مكان ما ، سأبقى طائراً في العاصفة على هذا النحو . انا وحيد والمرضى بالآلاف . وهكذا سأصاب بالتهاب الرئتين ، وقد أموت هنا . وبينما كنت أشكو نفسي لنفسي ضعت في العتمة دون أن أدري كم من الوقت قضيت فيها . لم أجد نفسي في اية حمامات ، ولم أجد إلا البرد الذي قرصني والذي اخذ يشتد ويشتد .

وعندما فتحت عيني رأيت ظهراً أسود ، ومن ثم فهمت أننا لا نمشي بل نقف .

سألت وانا احدّق بعيني المتعبتين :

ـ هل وصلنا ؟

تحرك الحوذي الأسود متململاً ، ثم خرج من مزلجته فجاة ، وتهيأ لي أن الرياح تتجاذبه من كل الجهات ... ثم تحدث دون أن يبدي اي احترام في لهجته :

ـ وصلنا ... كان علينا أن نسمع أصوات الناس إذاً ... آه يا إلهي ! سنقتل انفسنا ، وسنقتل الجياد ايضاً .

ـ وهل ضللنا الطريق ؟ وشعرت ـ عندها ـ بالبرد في ظهري .

فاجابني الحوذي بصوت حانق :

ــ عن أي طريق تتحدث ، كل شيء أمامنا لونه أبيض . طريق ! ؟ لقد ضعنا دون جدوى . إننا نمتي منذ أربع ساعات . لكن الى اين ...؟! هذا ما حصل .

أربع ساعات . أخذتُ أتحرك ، أتلمسُ الساعة ، وأخرجت الكبريت ، لكن لماذا ؟! لم يكن ثمة فائدة ترجى منه إذْ لم يشتعل أي عود . تقدحُ ، فيومض ، ثم ما تلبث النار أن تخبو وتنطفيء .

قال رجل الإطفاء بصوت جنائزي :

ــ أقول لك : أربع ساعات ، ماذا سنفعل الآن ؟

ــ وأين نحن الآن ؟

لقد كان سؤالي غبياً الى حدّ أن الحوذي لم يجد ضرورة للإجابة عنه ، تلفتُ في مختلف الاتجاهات ــ وخُيل إليّ للحظة أنني لا أتحرك بل العاصفة هي التي تهزني في المزلجة ــ ثم خرجت من المزلجة ، ففهمت على الفور أن الثلج قد وصل إلى مافوق الركب ، وأن كثبان الثلج قد وصلت إلى بطن الجواد الأخير الذي تدلى لبده كامرأة قليلة الشعر .

ــ هل أصبحنا وحيدين ؟

ــ نعم وحيدين . وخارت قوى الجياد .

وتذكرت بعض القصص ، ولسبب ماشعرت بالكره تجاه (ليف تولستوي) ، فكرت : « كانت حياته هانئة في قرية (ياسنايا بوليانا) ، إذ لم يأخذوه على مايبدو إلى بيوت الموتى ... » وشعرت بالإشفاق على رجل الإطفاء ، كما أنني عانيت أنا نفسي شدة الخوف الموحش ، ولكنني خنقته في قلبي .

تمتمت بانزعاج :

ــ هذا تخاذل .... وشعرت بطاقة هائلة تظهر في أعماقي

ثم قلت وأنا أشعر أن أسناني تتجمد من شدة البرد :

ــ هذا هو قدرنا ياعم ، لكن لا وقت لدينا للتعبير عن الاكتئاب هنا ، وإلا فإننا سنهلك فعلاً . لقد توقفت الجياد قليلاً ، ونالت نصيباً من الراحة ، ويجب علينا أن نتابع المسير . اذهب أنت وقد الجواد الأمامي من لجامه ، وسوف أوجه أنا البقية من عندي . يجب أن نخرج من هنا بسرعة قبل أن يطمرنا الثلج .

وانطلق الحوذي إلى الأمام ــ وبدت أذنا قبعته شديدتي الوضوح ــ يتعثر ويتخبط حتى وصل إلى الحصان الأمامي . لقد بدت لي عملية بدء إقلاعنا طويلة لا تنتهي . كانت العاصفة تصفعني بثلجها الجاف . وبدا الحوذي مثل الشبح يتأرجح أمام عيني .

ــ إوه . آخ ... تنحنح الحوذي .

ــ هيا . هيا . صرخت وأنا أهز العنان بقوة .

تحركت الجياد ببطء شديد متخبطة في الثلج ، وبدأت عربات التزلج تهتز كأنها على الأمواج ، وكان الحوذي يكبر تارة ويصغر أخرى إلى أن تخلص بصعوبة وركض إلى الأمام . تابعنا تحركنا على هذا النحو ربع ساعة تقريباً ، وفي النهاية شعرت أن المزالج بدأت تصر صريراً متوازناً ، وغمرت السعادة قلبي عندما أصبحت أرى حوافر الجواد الخلفي تتناوب في الظهور .

صحت :

ــ الثلج قليل هنا ، يبدو أنها الطريق .

ـ نعم نعم . أجابني الحوذي عائداً بصعوبة نحوي وقد كبر فجأة ، ثم ردد بصوت حاد ومنقطع من شدة الفرح :

ـ يبدو أنها الطريق . إن شاء الله لن نغوص ثانية ، ولن نضعها .

ـ إن شاء الله .

عاد كل منا إلى مكانه ، واندفعت الجياد بنشاط ، وخُيِّلَ إليَّ أن العاصفة قد هدأت حتى أصبحت ضعيفة ، وأنها خفتْ فوق رؤوسنا ، ولم يبق على جبيننا سوى الثلج الكدر . ولم أعد أتمنى أن نصل إلى المشفى دون سواها ، بل أن نصل إلى أي مكان مأهول لابد أن تؤدي إليه الطريق .

أسرعت الجياد فجأة ، وأخذت تقفز بحيوية ، ففرحت فرحاً مبهماً ، ثم سألت :

ـ هل شعرت الجياد بوجود مكان مأهول ؟

لم يجبني الحوذي ، فرفعت جسدي من المزلجة وتفحصت ما حولي . ثم تناهى إلى سمعي صوت غريب حزين ومتوحش انبعث فجأة من مكان ما في العتمة ، ثم اختفى . فساءت حالي دون أن أعرف السبب ، وتذكرت كيف اشتكى المحاسب وهو يضع رأسه على يديه . وفجأة لاحظت على الجانب نقطة معتمة ما لبثت أن كبرت حتى غدت قطة سوداء ، ثم كبرت وكبرت وأخذت تقترب ، فالتفت رجل الإطفاء نحوي ، فرأيت كيف قفزت أسنانه الاصطناعية من مكانها . وسأل :

ـ هل رأيت أيها الدكتور المحترم ؟

انعطف أحد الجياد نحو اليمين ، والآخر نحو اليسار ، وتأوه رجل الإطفاء ثانية ، وجثم على ركبتيه ، ثم اعتدل وأخذ يهز العنان بشدة ، فصهلت الجياد واندفعت اندفاعاً متعرجاً مهتزاً ، تقذف كتل الثلج وراءها .

ارتعشت عدة مرات ، لكنني تمالكت نفسي وأخرجت جسدي من صب المزلجة وتناولت مسدس البراونينغ وأنا ألعن نفسي لأنني نسيت مخزن الطلقات الاحتياطي في البيت . « لا ، إذا كنت غير راغب في البقاء والنوم ، فلماذا لم أحمل معي مشعلاً ؟! » وتخيلت خبراً صغيراً في الجريدة عن نفسي ، وعن رجل الاطفاء تعس الحظ .

كبرت القطة فاصبحت كلباً ، واخذت تتمشى بالقرب من المزالج ، والتفتُ فرأيتُ مخلوقاً ثانياً بأربع قوائم قريبــاً جداً خلف المزالج . أستطيع ان احلف أن هذا المخلوق كان ذا أذنين حادتين ، وأنه كان يمشي خلفنا بهدوء كما لو انه يمشي على الباركيت ، وقد تبدت من مشيته سمات وحشية رهيبة .

« أقطيع هم أم اثنان فقط ؟ » وعند كلمة « قطيع » شعرت وكأن قطراناً قد غمرني تحت المعطف وأن أصابعي لم تعد متجمدة فوق رجلي . وقلت بصوت ليس لي ، ولم أعهده من قبل :

ــ تماسك جيداً ، وامسك الجياد ، اما انا فسأطلق النار الآن .

اجاب الحوذي بآهٍ فقط ، ثم خبّأ رأسه بين كتفيه .

لمعت الطلقــة أمام عيني ، وصمّ دويهــا أذنيّ ، ثم اطلقت ثانية وثالثة . . . ولا أذكر كم دقيقة هزتني الطلقات في قاع المزلجة .

سمعت صهيل الجياد المتوحش ؛ فضغطت على زناد البراونينغ ، فاصطدم راسي بشيء ما ، فحاولت أن أخرج من المزلجة بغتة ، وفكرت برعب شديد بأن جسداً ضخماً مخيفاً قد تشبث بصدري وتخيلت منظر أحشائي الممزقة . وفي تلك اللحظة صاح الحوذي :

ــ ها . . . هوذا هناك ، ها هوذا . . . يا إلهي اطرده . . .

واستطعت في نهاية الأمر أن أسوّي أمري مع فروتي الثقيلة ، وأحرر يديّ منها . ورفعت رأسي فلم أرَ حيوانات سوداً مفترسة لا من الخلف ولا من الجوانب . وهبت العاصفة بلطف وهدوء ، ثم التمع ضوء شديد الروعة ـ أعرفه الآن ، وكنت أستطيع تمييزه من بين الآلاف ـ إنه ضوء المصباح في مشفاي ، وخلفه انتشرت العتمة ، « ياله من منزل رائع ! وهل هناك قصور أجمل !؟ » ومن شدة فرحتي أطلقت طلقتين من البراونينغ نحو الخلف حيث هربت الذئاب .

وقف رجل الإطفاء في منتصف الدرج المؤدي إلى الجزء السفلي من بيت الطبيب الرائع ، ووقفت انا في أعلاه ، وبقيت اكسينيا التي ترتدي معطفها المصنوع من فرو الضأن في الأسفل . قال الحوذي :

ـ مهما اعطيتموني من ذهب فلن أذهب ثانية . . . ، ولم يتمّ عبارته ، وشرب كأساً من الكحول دفعة واحدة ، تنحنح بعدها نحنحة مخيفة ، ثم التفت الى اكسينيا وأضاف وهو يمط يديه ما مكنته طبيعة بنيته :

ـ يا لها من ذئاب ضخمة !

وسألتني اكسينيا :

ـ هل ماتت ؟ الم تنقذوها ؟

فأجبت دون اكتراث :

ـ لقد ماتت .

بعد ربع ساعة هدأ كل شيء في رأسي ، وأطفىء النور في الأسفل ، وأصبحت وحيداً في الطابق العلوي . ولسبب مـا ضحكت ضحكاً متشنجاً ، ثم حللت أزرار البلوز ، وعدت فزررتها ثانية ، ومشيت نحو

رفوف المكتبة وتناولت مجلد الجراحة ، أردت أن اعرف شيئاً ما عن كسور الجمجمة . لكنني طرحت المجلد جانباً وصرخت بصوت مدوٍ :

ــ مهما أعطيتموني ... لكن بعد الآن لن اذ .. هـ .. ب .

وصفرت العاصفة هازئة ... ستذهب ... هه ستذهب ...

ومرت الرياح ، فأصدرت فوق السطح اصواتاً كالرعد ، ثم صفرت عبر المزاريب ، وخرجت منها ، ثم خشخشت على الشباك ، ثم ابتعدت، ودقت عقارب الساعة ، ستذهب ..... ستذ ... هب ...

ثم هدأت وهدأت .

ثم لا شيء . هدوء . نوم ...

* * *

العتمة المصرية

أين العالم كله في يوم عيد ميلادي ؟ أين مصابيح موسكو الكهربائية ؟ أين الناس ، السماء ؟ ليس ثمة شيء خلف النوافذ سوى العتمة !!

نحن مفصولون عن الناس تماماً ، إذ تبعد اقرب المصابيح الكازية التي تقع عند محطة السكك الحديدية تسعة فراسخ عنا . ربما يتلألأ هناك مصباح كهربائي تخنقه الزوبعة ؛ ويمرّ من هناك في منتصف الليل القطار الذاهب الى موسكو هادراً ، دونما حاجة للتوقف في هذه المحطة المنسية والمدفونة في قلب العاصفة ؛ لا بد أنه يحمل شيئاً ما في طريقه .

أمّا أقرب مصباح كهربائي فيقع في مركز القضاء على بعد أربعين فرسخاً منا . هناك الحياة حلوة ، إذ يوجد كثير من المحال التجارية ، ودار للسينما ... وفي الوقت الذي تعوي فيه العاصفة ويغمر الثلج الارض ، يمكننا أن نرى على الشاشة كيف يسبح القصب ، وتتمايل أشجار النخيل وتتلألأ الجزر الاستوائية .

نحن هنا وحيدون.

قال مساعدي ديميان لوكيتش وهو يرفع الستارة :

ـ عتمة مصرية .

إنه يعبر عادة بأسلوب مهيب وشديد الإحكام ، فالعتمة مصرية ولا يجوز أن تكون غير ذلك . ودعوتهم :

ـ أرجوكم ان تشربوا قـدحاً آخر . (آه ، ارجـو الا تستنكروا فالطبيب ومساعده والقابلتان بشر أيضاً . نحن لا نرى لأشهر كاملة احداً غير مئات المرضى ، إننا نعمل في الثلج ، وندفن فيه . اليس من حقنا ان نشرب قدحين من الكحول الممزوج بالماء حسب الوصفة . وان نأكل سمك الإسبرط في عيد ميلاد الطبيب ؟!) .

قال ديميان لوكيتش على نحو مؤثر :

ـ بصحتك يا دكتور .

وقالت آنا نيكولايفنا وهي ترفع كأسها ، وتسوّي ثوبها الاحتفالي الموشّى :

ـ نتمنى لك ان تعتاد الحياة عندنا .

رفعت القابلة الثانية بيلاحيا إيفانوفنا ـ التي افرطت في الشرب ـ قدحها ، ثم جلست القرفصاء لتحرك نار الموقد بالمسعّر ... فظهرت آثار الحرارة في وجوهنا ... واحسسنا بالدفء يغمر صدورنا بفعل الفودكا .

قلت بانفعال شديد ، وانا احدق في سحابات الشرار المتطاير بجانب الموقـد :

ـ إني لا أفهم أبداً ما فعلته المرأة بدواء البيلادونا(*) . إنها مصيبة حقيقية .

لعبت الابتسامات على وجوه المساعد والممرضتين .

(*) البيلادونا : نبتة ست الحسن . يستحضر منها بعض المستحضرات الطبية .

جوهر القصة أن امرأة متوردة الخدين في الثلاثين من عمرها تقريباً جاءتني الى العيادة في فترة الدوام الصباحية ... استندت على كرسي مساعدي الموضوع خلف ظهري ، ثم اخرجت من عبها زجاجة صغيرة عريضة مدورة ، وقالت متملقة :

ـ شكراً لك أيها الدكتور على الشراب ، فقد ساعدني كثيراً ... هلا تكرمت علي بزجاجة اخرى .

اخذت الزجاجة من يدها ونظرت في الورقة الملصقة عليها ، فأصبح كل شيء اخضر في عيني . كان قد كتب على الورقة بخط ديميان لوكيتش :

« شراب البيلادونا ... » الخ ... « ١٦ ، كانون الأول ، عام ١٩١٧ » .

وبكلمات اخرى : البارحة فقط اعطيت هذه المراة كمية لا باس بها من البيلادونا واليوم السابع عشر من كانون الأول ، في عيد ميلادي ، جاءت هذه الحرمة بالزجاجة فارغة تطلب المزيد .

سألتها بصوت متوهش :

ـ هل تناولته البارحة ؟

ـ نعم . كله ، يا سيدي المحترم ، كله . ليعطك الله الصحة لقاء هذا الشراب . شربت نصف الزجاجة عندما وصلت ، والنصف الثاني عندما اردت النوم .

وما إن رفعت يديها عن كرسي مساعدي حتى استندت انا عليه ، وقلت بصوت مخنوق :

ـ كم نقطة قلت لك ؟ لقد قلت لك خمس نقاط ... ماذا فعلت يا امرأة ؟ إنك ... إنني ...

ـ والله لقد تناولته . هكذا قالت وهي تظن ّ انني لا انق بها ، ولا اثق انها تناولته .

امسكت بيدي ّ خديها الورديين ، وحدقت في بؤبؤي عينيها ، لكن البؤبؤين كانا طبيعيين . كانا جميلين الى حد ٍ كبير وعاديين تماماً . وكان نبضها جيداً ، ولم الاحظ عموماً ، اية أعراض للتسمم بالبيلادونا عند هذه الحرمة .

قـلت :

ـ هذا غير ممكن . ثم ناديت ديميان لوكتيش ، فظهر بغتة قادما بردائه الأبيض من الممر المؤدي الى الصيدلية .

ـ انظر يا ديميـان اوكيتنس من فضلك ، انظر ماذا فعلت هـذه الحسناء ، إنني لا افهم شيئاً ...

ادارت الحرمة راسها بخوف ، وقد فهمت أنها ارتكبت حماقة ما .

تناول ديميان لوكبتش الزجاجة وشمها ، ثم ادارها في يده وقال حازماً :

ـ أنت ِ يا عزيزتي تكذبين ، انت لم تتناولي الدواء .

ـ والله ، والله ...، أخذت المرأة تقسم .

قال ديميان لوكيتش وقد اوى فمه غاضباً :

ـ لا تحاولي ذر ّ الرماد في العيون . إننا نعرف كل ّ شيء معرفة تامة . اعترفي ، هيا ! من عالجت بهذا الشراب ؟

نقلت الحرمة بؤبؤيها العاديين النظر في السقف المكلّس النظيف ، ورسمت علامة الصليب .

ـ هـذا ما ...

قاطعها ديميان لوكينش قائلا :

ـ كفي كفي ... ثم توجه بحديثه إليّ ... هل تعرف ماذا يفعل هؤلاء يا دكتور ؟!... تأتي إحدى النساء الكاذبات إلى المشفى فيعطونها دواء ، فتعود إلى قريتها فتضيف جميع الحريم هناك .

ـ ماذا أيها المساعد المحترم ...

ـ اسكتي . تدخل مساعدي ثانية ؛ إنني عندكم هنا للعام الثامن . ثم تابع موجهاً خطابه إليّ :

لقد قطرت الزجاجة في البيوت كلها بالطبع .

لكن الحرمة عادت ترجوني متملقة :

ـ أعطني بعضاً من هذا الشراب أرجوك .

فاجبتها وأنا أمسح العرق عن جبيني :

ـ لا ، لا أيتها الحرمة ، لا ضرورة لمداوانك بعد الآن بهذا الشراب ، الم يبرأ بطنك ؟

ـ هه ! ليس تماماً ، وأشارت بيدها !

ـ هذا شيء رائع ، سأكتب لك على دواء جديد ، إنه دواء جيـد أيضـاً .

وكتبت للحرمة على دواء النردين(*) ، فخرجت خائبة .

لقد تحدثنا عن هذه الحادثة في شقتي في يوم عيد ميلادي عندما كانت العتمة المصرية خلف النوافذ كأنها ستارة من الزوابع المزعجة .

قال ديميان لوكيتش وهو يمضغ السمك المزيت بتهذيب شديد :

ـ ما هذا ما هذا ..؟ لكأننا قد اعتدنا الحياة هنا . وانت يا عزيزي الدكتور ستعتاد ، وستعتاد كثيراً ، إنها غابة .

ـ آه يا لها من غابة . ردّت آنّا نيكولايفنا وكأنها الصدى .

أخذت العاصفة الثلجية تعوي في المداخن ، وخشخشت ضرباتها على الحائط الخارجي ، وانعكست بقايا الضوء الأرجواني الذي ترسله النار على صفيحة الموقد السوداء .

بوركت النار التي تدفىء الطاقم الطبي في هذه الغابة .

قال مساعدي بعد أن أخذ يدخن، وقد قدّم لآنا نيكولايفنا سيجارة بتهذيب جم :

ـ هل ترغب بسماع شيء عن سابقك الدكتور ليوبولد لبوبولديفيتش ؟

كان طبيباً رائعاً . قالت بيلاجيا إيفانوفنا بحماس شديد وهي تنظر بعينيها الفاتنتين في نار الموقد المباركة وقد تلألأت بكلة شعرها الأسود المزينة بأحجار مزيفة .

ثم أكد مساعدي :

(*) النردين : دواء مسكن يصنع من جذور نبتة الفاليريانا (Valeriane) .

ـ نعم إنه رجل عظيم ، وقد احبه الفلاحون حتى العبادة ، لأنه عرف كيف بكسب ودهم . فكانوا يتمددون لإجراء العمليات عنده بكل سرور ، ويسمونه ليبونتي ليبونتيفيتش بدلاً من ليوبولد ليوبولدبفيتش، كانوا ينقون به وكان هو يجيد الحديث معهم . اسمع أيضاً هذه الحادثة:

أتى واحد من معارفه للمعالجة ، كان اسمه فيودور كوسوي من قرية دولتسوف ، فقال شاكياً : ـ اشعر يا ليبونتى ليبونتيفيتش بانقباض في صدري ، لكن ليس إلى حد الاختناق وعدا عن ذلك ثمة شيء ما يخنخنس في بلعومي ...

ـ خذ ليارنيفيت . قلت آلياً إذ اعتدت السرعة بعد شهر من الاستعجال في تشخيص الأمراض الريفية .

ـ عين الصواب . « إذاً سأقدم ـ قال له ليبونتي ـ لك علاجاً وستبرأ خلال يومين . خذ لصقتي خردل فرنسيتين ! تلصق والحدة على ظهرك بين الأكتاف ، والثانية على صدرك ، وبعد أن تلصقهما تنتظر عشر دقائق ثم تنزعهما ... هيا إلى الأمام سر » .

اخذ المريض اللصقتين وذهب ، ثم ظهر بعد يومين من جديد في العيادة ..

« ما الأمر ؟ » سأله ليبونتي . فأجابه كوسوي :

ـ « ما هذا يا ليبونني ليبونتيفيتش ؟ لم تساعدني لصقاتك قط».

فأجابه ليبونتي :

« تكذب ! إذ لا يمكن للصقات الخردل الفرنسية الا تساعد ، يبدو انك لم تضعهما ! »

أجاب : ـ « كيف لم أضعهما ؟ إنهما ملصوقتان الآن » وعلى الفور استدار ليري الطبيب ظهره .

كانت اللصقة ملصوقة على معطفه !...

انفجرتُ مقهقهاً ، وضحكتْ بيلاجيا إيفانوفنا مستهزئة وضربت قطعة الحطب بالمسعر بعنف .

قلت : ـ هذا من اختراعك ، إنها نكتة ، هذا لا يمكن أن يحدث .

ـ نكتة ؟! نكتة ؟! صاحت القابلتان معاً بصوت عالٍ .

ردّ مساعدي بعنف :

ـ لا ، لا ، ! أتعرف ؟ حياتنا هنا هي مجموعة نكات كهذه... الأمور كلها هكذا هنا .

ثم قالت آنا نيكولايفنا :

ـ والسكر ! حدثينا عن السكر يا بيلاجيا إيفانا(*) !

أغلقت بيلاجيا إيفانا باب الموقد ، وقالت غاضة طرفها :

ـ سافرت مرة إلى قرية دولتسوف لتوليد امرأة ...

لم يستطع مساعدي تمالك نفسه فقاطعها وعلق :

ـ دولتسوف يا له من مكان ذائع الصيت . ثم قال أنا آسف تابعي يا زميلة .

(*) إيفانا : اسم التحبب من إيفانوفنا .

ـ لا باس سأتابع ، ـ قالت بيلاجيا إيفانا ـ ثم تابعت : عندما كنت افحص الحامل شعرت تحت أصابعي في قناة الولادة بشيء ما غير مفهوم ... شيء هش مرة ، وحاد مرة اخرى ... تبين لـي فيما بعد أنـه سـكر ابيض ...

قال ديميان لوكيتش بأسلوبه الاحتفالي :

ـ يالها من نكتة .

ـ اعذروني لا افهم شيئاً .

فسارعت بيلاجيا إيفانا بتقديم الشرح :

ـ القصة كلها ان الساحرة قالت للحرمة الحامل إن ولادتها عسيرة، وإن الجنين لا يود الخروج إلى ضوء الله ، لذا كان لا بد من إغرائه بشيء حلو المذاق .

قلت : ـ هذا شيء رهيب .

قالت آنا نيكولايفنا : ـ يعطون المراة الماخض شعراً لتمضغه .

ـ لـماذا ؟

ـ الشيطان يعرف ذلك . لقد جاؤوا ثلاث مرات بنساء في لحظة المخاض ، كانت الواحدة تتمدد وتبصق . فمها مملوء بالشعر الخشن . ثمة عادة تقول إن الولادة تصبح أيسر بذلك .

لمعت عيون القابلتين من الذكرى .

جلسنا مطولاً عند الموقد نشرب الشاي ، وتابعت الإصـغاء لهـم مسحوراً باحاديثهم ... تحدثوا عن موضوع نقل المـرأة الماخض مـن

القرية إلى المشفى ، وكيف كانت بيلاجيا إيفانوفنا تتـرك باب عربتهـا الخلفي مفتوحاً دائماً لتراقب إن كانوا سيعيدون المراة الحامل لتلد بين يدي القابلة المنعوذة في القرية ، وكيف أنهم في إحدى المرات أرادوا إعادة الجنين إلى وضعه السليم عند امراة حامل ؛ فعلقوها من رجليها في السقف ! وكيف أن إحدى القابلات الشعبيات في قرية كربوف سمعت ان الأطباء يقومون ببزل كيس الجنين ... فتناولت سكين المطبخ وقطعت رأس الجنين ، حتى إن طبيباً مشهوراً ومحنكاً مثل نيبونتي لم يستطع إنقاذه ، واكتفى بإنقاذ الأم والحمد لله ، وكيف ، وكيف ...

اطفأنا الموقد منذ فترة ، وذهب الضيوف إلى أجنحتهم ... ولمحت الضوء الخافت وهو ينبعث لبعض الوقت من نافذة آنا نيكولايفنا ، ثم ما لبث أن انطفأ . توارى كل شيء عن ناظري . اختلطت الزوبعة الثلجية بالمساء الكانوني المظلم ، وحجبت الستارة السوداء السماء والأرض عني .

أخذت أتمشى في غرفة مكتبي، فتصرّ تحت قدمي الأرضية الخشبية كانت الغرفة دافئة بفضل الموقد الهولندي . وكان مسموعاً الصوت الذي يصدره الفأر وهو يقضم بنهم شديد شيئاً ما في إحدى الزوايا .

قلت في نفسي : « سأناضل هذه العتمة المصرية ، سأناضلها بقدر ما يحتفظ بي قدري هنا في هذه الغابة . سكر أبيض ... قولوا لي من فضلكـم » .

ظهرت في سلسلة أحلامي التي ولدت أمام ضوء المصباح ذي الغطاء المعدني المدينة الجامعية الضخمة ، كان فيها مشفى كبير ، فيه صالة ضخمة ، أرضية مقطعـة على شكل مربعـات ، صنابير متلألئة بيض نظيفة ، طبيب مساعد ذو لحية شائبة مدببة تدل على الحكمة ...

إن قرع الباب في لحظات كهذه يزعج ويخيف دائما .

ارتجفت خوفاً .

ـ من هناك يا اكسينا !؟ سألت وأنا أتدلى من درابزون الـدرج السفلي ... (تتكون شقة الطبيب من طابقين : في الأعلى غرف النوم والمكتب ، وفي الأسفل غرفة الطعام،وغرفة أخرى ليس لها وظيفة معروفة والمطبخ الذي تقطن فيه الطباخة أكسينا وزوجها حارس المشفى الدائم)

صلصل المزلاج الثقيل ، ودخل ضوء المصباح يتأرجح في الأسفل ، وهبت ريح باردة .

قالت لي أكسينا :

ـ وصل مريض

أفرحني الخبر لاحقاً لان النوم جافاني ، وسبب لي قضم الفئران والذكريات بعض الكآبة . إضافة الى ذلك فإن كلمة مريض تعني أنه ليس امراة ، اي ليس اكبر مصيبة ... ليس ولادة .

ـ هل يستطيع المشي ؟

ـ يستطيع . اجابت اكسينا متثائبة .

ـ إذاً دعيه ياتي الى غرفة المكتب .

صر الدرج الخشبي مطولا . صعد شخص ضخم ثقيل الوزن ، وجلست في تلك اللحظة إلى طاولة الكتابة محاولاً الا تهرب من ملامحي الطبية الأعوام الأربعة والعشرون التي عشتها ، ووضعت يـدي الأولى على السماع كما لو انها على المسدس .

حشرت هيئة ترتدي فروة من جلد الخرفان ، وتنتعل جزمة شتوية طويلة نفسها في الباب ، وقد حملت الهيئة القبعة بيدها .

ـ لماذا اتيت في وقت متاخر يا صديقي ؟

فأجابت الهيئة بصوت رقيق ولطيف :

ـ اعذرني ايها الدكتور المحترم ، إنها الزوبعة ، المصيبة الكبرى ، هي التي اخرتني ، ماذا كان يمكنني أن افعل ؟ سامحني من فضلك .

قلت في نفسي وانا راض تماما : « انه شخص مهذب » .

لقد أعجبتني الهيئة إعجاباً شديداً ، حتى تلك اللحية الشقراء الكثة تركت لدي انطباعاً حسناً . ويبدو أن هذه اللحية قد تمتعت ببعض العناية إذ إن صاحبها لم يعمد إلى تشذيبها فقط ، بل دهنها بشيء ما ، لا يصعب على الطبيب الذي عاش وقتاً قليلا في القرية أن يحدده انـه زيت نباتـي .

ـ ما المشكلة ؟ اخلع فروتك ! من اين اتيت ؟

تموضعت الفروة على الكرسي كجبل .

أجابني المريض وهو يرنو إلي بجزع :

ـ لقد أعيتنى الحمى .

ـ الحمـى ؟

ـ اجـل .

ـ أنت من دولتسوف ؟

ـ نعم بالضبط ، واعمل طحاناً .

ـ حدثني إذا ، كيف تعذبك الحمى ؟

ـ كل يوم في الساعة الثانية عشرة يبدأ رأسي يؤلمني ، وتبدأ حرارتي بالارتفاع وتستمر كذلك ساعتين ثم تعود للانخفاض .

« ألتشخيص جاهز » لمعت فكرة الانتصار في راسي .

ـ الا نشعر بشيء في الساعات الأخرى ؟

ـ هم ... فك الازرار ! هم ...

لقد استطاع هـذا المريض أن يستحوذ على إعجابي منذ اللحظـة الأولى وحتى نهاية الفحص ، فبعد أولئك العجائز الجاهلات ، والأولاد الخائفين من خافض اللسان المعدني ، وبعد النكتة الصباحية مع البلاده نا هنئت عيناي الفتيتان بالنظر الى هذا الطحان .

كان حديثه بليغاً ، وبدا أنه متعلم ، حتى إن كلّ إشارة منه كانت مشبعه بالاحترام للعلم ولا سيما للطب ؛ أي بالاحترام لما أحبّ .

قلت وانا انقر على صدره العريض الدافىء :

ـ اسمع يا عزيزي انت مصاب بالملاريا ، الحمى المتقطعة ... يوجد لديّ الآن عنبر كاملٌ خال من المرضى ، انصحك أن تبقى عندنا هنا وسوف نراقب صحتك كما يجب . سأبدأ معالجتك بالمساحيق ، وإذا لم تجد نفعا سنجري لك بعض الحقن ولا بدّ أن ننجح ، ما رأيك ؟ انبقى ؟

اجاب الطحان بلطف شديد :.

ـ اشكرك مـن كلّ أعماقي ، كلّ مـن سمع بك رباض عنك ، يتحدثون عن مساعداتك ... وأنا موافق على الحقن ، المهم أن تتحسن صحتي .

« لا ، هذا والله شعاع مضيء في عتمة هذه الغابة » فكرت بهذا ، وجلست الى الطاولة يملؤني شعور بالرضا ، لكان الذي جاء الى المشفى ليس طحاناً غريباً بل أخٌ حقيقي جاء ليحلّ ضيفاً عندي .

كتبت على إحدى أوراق الاستمارات .

« مسحوق الكينا . ٥ر٠

اصرف عشر جرعات . ظرف واحد في منتصف الليل

اسم المريض : الطحان خودوف » .

ثم وضعت توقيعي الشجاع .

وكتبت على استمارة أخرى

« بيلاجيا إيفانوفنا :

ضعي الطحان في العنبر الثاني ، إنه مريض بالملاريا ، أعطه ظرفاً واحداً من الكينا كما هو مفترض قبل اربع ساعات من النوبة اي في منتصف الليل . أقدم لك حالة استثنائية إنه طحان مثقف » .

وبعد أن تمددت في فراشي تسلمت من اكسينيا المتجهمة والمتثائبة ورقة كتب عليها :

« عزيزي الدكتور

نفذ كل شيء . بيلاجيا إيفانوفنا » .

ثم نمتُ .

..... واستيقظت .

أخذت اصرخ :

ــ ماذا بك ؟ ماذا ؟ ما الامر يا آكسينيا ؟

وقفت أكسينا خجلة تغطي الأرض السوداء بتنورتها ذات البقع البيض ، وقد اضاء نور الشمعة الاستيارينية(*) المهتز وجهها النعس والقلق .

ـ جاءت ماريا الآن . وهي تقول إن بيلاجيا إيفانا أمرتها أن ترجوك الحضور حالا .

ـ ما الأمر ؟

ـ تقول إن الطحان في العنبر الثاني يموت .

ـ ماذا ؟ يموت ؟ كيف ؟ كيف يمكن أن يموت ؟

شعرت قدماي الحافيتان ببرودة الأرض فورا إذ اخطأتا الحذاء . كسرت عود ثقاب وغرزته مطولا بفتيلة المصباح حتى اشتعلت فأعطت ناراً مائلة الى الزرقة . كانت الساعة السادسة تماماً .

« ماذا عسى أن يكون الأمر ؟ ماذا ؟ أمن الممكن الا تكون الملاريا ؟ مم يعاني إذاً ؟ نبضه ممتاز ... »

وخلال ما لايزيدعلى خمس دقائق ، خرجت أقفز عبر الفناء المعتم تماماً بجواربي التي لبستها بالمقلوب ، وجاكيتي غير المزرر ، وشعري الأشعث ، وجزمتي الشتوية ... ودخلت الى العنبر الثاني راكضاً .

كان الطحان يجلس على فراشه ، والى جانبه شرشف مجعد ، يرتدي لباس المشفى ، ويضيء له مصباح كاز صغير . كانت لحيته الشقراء مشعثة ، وبدت عيناه سوداوين كبيرتين ؛ كان يهتز مثل السكران ، وينظر حوله برعب شديد ، ويتنفس بصعوبة ...

(*) الاستيارين : مادة يصنع منها الشمع .

نظرت الممرضة ماريا ، فاغرة فاها ، في وجهه القرمزي الغامق ...

تحركت بيلاجيا إيفانوفنا للقائي دون غطاء رأسها المعهود ، وبثوب ارتدته على عجل . قالت :

ـ أقسم يا دكتور انني لست مخطئة . من كان يمكنه أن يتوقع ؟ انت نفسك اكدت انه مثقف .

ـ لكن ، ما الأمر ؟

ضربت بيلاجيا إيفانوفنا كفاً بكف وقالت :

ـ تخيل يا دكتور لقد ابتلع ظروف الكينا العشرة كلها مرة واحدة عند منتصف الليل .

* * *

كان الفجر شتوياً معتماً . نظف ديميان لوكيتش الانبوبة المعوية ، وانتشرت رائحة زيت الكافور ، وملىء الطست الموضوع على الأرض بسائل بني داكن ، تمدد الطحان شاحباً مضنى مغطى بالشرشف حتى ذقنه ، وظهرت لحيته الشقراء شعثاء فوق الشرشف . انحنيت لافحص النبض ، وتأكدت أن الطحان قد تجاوز محنته بسلام .

سألته : ـ كيف الحال ؟

أجاب الطحان بصوت خفيض :

ـ أوه ، آخ ، أشعر بالعتمة المصرية في عيني .

فعقبت غاضباً :

ــ وأنا أيضاً أشعر بذلك ...

ــ ماذا ؟ قال الطحان . (كان لما يزل يسمع على نحو سيء) . لذا صحت في أذنه بشدة :

ــ اشرح لي مسألة واحدة فقط يا عم . لماذا فعلت ذلك ؟

فأجاب بصوت حزين وبنفور :

ــ قلت في نفسي لم التباطؤ في العلاج ، ولماذا أتناول الظروف واحداً بعد الآخر ؟ لذا تناولتها كلها دفعة واحدة وانتهى الأمر .

ــ ياله من شيء مذهل . صحت بصوت مرتفع .

فعلق مساعدي الوسنان ساخراً :

ــ نكتة !.

* * *

« لكن لا ... لا بد أن أكافح ... لا بد .. سأ ... » .

وبعد ليلة شاقــة غرقت في حلم لذيـذ ، تمددت غشاوة العتمة المصرية ... وكأنني فيها ... ليس معي سيف ولا سماعة طبية ... امشي ... أكافــح ... في الغابــة لكني لست وحيــداً بل يمشي معي جيش :ديميان لوكيتش ، وآنا نيكولايفنا ، وبيلاجيا إيفانوفنا ، يمشي الجميع بأرديتهم البيض ... الجميع الى الأمام ...

حلم ــ نكتة طريفة ..

* * *

الطفح النجومي

إنه هو ! هكذا أوحت إليّ عزيزتي . إذ لا يمكن أن أعتمد على معارفي ، فهي غير موجودة بالطبع ، لأنني طبيب مستجد تخرجت من الجامعة منذ ستة أشهر فقط . خشيت أن ألمس الرجل من كتفه العاري الدافىء (مع أنه ليس ثمة ما يخشى) واكتفيت بأن قلت له آمراً :

ــ هيا يا عم ، أرني ، اقترب من الضوء !

تحرك الرجل كما أردت تماماً ، فغمر ضوء المصباح الكازي جلده المائل إلى الصفرة . كان الطفح الجلدي المرمري بادياً فوق اصفرار صدره البارز وعلى جنبيه . قلت في نفسي « هذا الطفح كالنجوم في السماء » ، انحنيت بقلب بارد نحو صدره ، ثم حولت عيني عن صدره إلى وجهه . كان وجهه أمامي يومىء إلى أربعين سنة وإلى مثل هذا تومىء لحيته اللبدة الوسخة ذات اللون الأشهب ، وعيناه الجريئتان المغطاتان بانتفاخات مزمنة . لقد قرأت في هاتين العينين ــ ويا لدهشتي الشديدة ــ أهمية معرفة عزة النفس .

رفّ جفنا الرجل ، ونظر حوله متململاً ، ودون اكتراث ، ثم أصلح حزام بنطاله . « إنه هو ــ السفلس » قلت في نفسي للمرة الثانية جازماً . إنها المرة الأولى في حياتي الطبية التي أصادف فيها هذا المرض . فأنا طبيب رُميتُ من مقاعد الدراسة فوراً الى هذا الريف النائي في بداية أيام الثورة .

التقيت بهذا السفلس بمحض الصدفة ، فقد جاءني هذا الشخص يشكو من صعوبة في بلع الطعام . ودون وعي أو تفكير في السفلس إطلاقاً طلبت منه أن ينزع ثيابه ، وعندما فعل رأيت هذه الانتفاخات التي تشبه النجـوم .

ربطت بين بحة المريض ؛ وحمرة حلقه المنذرة بالشؤم بسبب تلك البقع البيض الغريبة التي تخالطها ؛ والصدر المرمري ، فاصبْتُ .

مسحتُ يديّ قبل كل شيء بكرةِ السليماني ... وتخشّبتْ على خيالي لدقيقة كاملة فكرة افني « اعتقدت انه سعل على يدي» . ومن ثم قلبتُ بيدي ، بعجز وتأفف ، الملوق الزجاجي الذي استطعت بفضله أن أفحص حنجرة المريض . أين يمكنني أن أضعه ؟ قررت أن أضعه على حافة النافذة ، على قطعة من الشـاش .

قلت :

ـ هكذا إذاً . اترى ؟ هم ، على ما يبدو ... بل أعتقد ... انت مصاب ، اترى ، بمرض ملعون ـ السفلس ...

قلت هذا مرتبكا ، وتهيأ لي أن الرجل سوف يخاف خوفاً شديداً ، وسيغضب ... لكنه لم يخف البتة ، ولم يغضب .

نظر إلي بطرف عينه ، كما تنظر الدجاجة عندما تسمع صوتـاً يناديها . واستغربت عندما لمحت في عينيه المدورتين انه لايثق بي .

قلت بلطف :

ـ انت مريض بالسفلس ..

ـ وما هذا السفلس : سأل الرجل ذو الطفحات المرمرية .

عند ذلك تراءى أمام عيني بوضوح شديد طرف العنبر الأبيض كالثلج في المشفى الجامعي ، وتراءى المدرج بما فيه من رؤوس الطلاب المكدسة ، واللحية البيضاء للبرفيسور المختص بالأمراض الزهرية ... لكنني عدت الى رشدي بسرعة لأجد انني أبعد عن ذلك المدرج الفا وخمسمئة فرسخاً ، وابعد عن اقرب محطة للسكك الحديدية أربعين فرسخاً وأعيش هنا في ضوء هذا المصباح الكازي .

كانت اعداد غفيرة من المرضى تلغط بصوت منخفض خلف الباب وهي تنتظر دورها وكانت ندف اول ثلوج الشتاء تتساقط وقد بدأ الظلام يمد اجنحته رويداً رويداً .

طلبت من المريض ان يتابع نزع ثيابه ... حتى وجدت القرحة الأولى التي اندملت ، فغادرتني بذلك شكوكي الأخيرة ، وغمرني الشعور بالاعتزاز ، وهو شعور يرافقني في كل مرة اصل فيها إلى التشخيص الصحيح .

قلت :

ـ زور ! انت مصاب بالسفلس ! إنه مرض شديد الخطورة وسينتشر في الجسم كله ، يجب عليك أن تتعالج الوقت طويل .

عندها تلعثمت لأنني ـ قسماً ـ قرأت في نظرته التي تشبه نظرة الدجاجة استغراباً مختلطاً باستهزاء واضح .

قال المريض :

ـ حلقي يؤلمني .

ـ بالطبع ، يؤلمك بسبب السفلس، وبسببه ايضاً هذه الطفحات على الصدر . انظر إلى صدرك ...

نظر الرجل شزراً ، ثم حدق دون ان تنطفىء نار السخرية في عينيه وقــال :

ـ آه لو انك تعالج لي حلقي .

فكرت وقد نفد صبري بعض الشيء « كل يغني على ليلاه ، أحدثه عن السفلس ويحدثني عن الحلق » .

تابعت حديثي بصوت عالٍ :

ـ اسمع ياعم ! حلقك أمر ثانوي ، نستطيع معالجته ، لكن الشيء المهم هو ان تشفى من المرض العام والأساسي ، وهذا يتطلب علاجاً طويلاً .. عامـين .

عندها حملق المريض في وجهي وقرأت في عينيه حكمه علي « ماذا يادكتور هل جننت ؟ » .

ـ لماذا هذه المدة الطويلة كلها ؟ كيف يمكن ان اعالج سنتين ؟!اعطني من فضلك أي دواء للغرغرة كي يشفى حلقي .

اشتعل كل شيء في داخلي ، واخذت اتحدث بوضوح لأنني لم اعد أخشى أن اخفيه بل على العكس،قلت له إنه يمكن أن يفقد انفه، ثم تحدثت عما يمكن أن ينتظره في المستقبل في حال إهماله العلاج كما يجـب ، وتطرقت كذلك الى موضوع عدوى السفلس ، وتحدثت مطولاً عـن الصحون والملاعق ، والأكواب ، والمنشفة الخاصة به ... ثم سألته :

ـ هل انت متزوج ؟

فأجاب المريض بدهشة :

ـ نعم متزوج .

فقلت وأنا اشعر باهتياج وغضب :

ـ إذاً ارسل زوجتك إلي فوراً ، إذ يمكن أن تكون هي الأخرى مريضة .

ـ زوجتي !! سألني المريض وحدق في وقد دهش دهشة شديدة ... وهكذا تابعنا الحوار ، هو يحدق في عيني بجفنين مرتخيين ، وأنا احدق فيه ، بل الأصح ان هذا لم يكن حواراً بين اثنين ، بل هو حواري الداخلي ، حوار رائع . كان يمكن لأي بروفيسور ان يضع لي الدرجة خمساً في العام الدراسي الأخير . لقد اكتشفت في نفسي معارف هائلة في علم الامراض الزهرية ، وبذكاء فائق ملأت الفراغات المتروكة في تلك الأماكن التي لم تكف اسطر الكتب الجامعية الألمانية والروسية لملئها لقد تحدثت عن المضاعفات التي يمكن أن تحدث للمريض إذا لم يتعالج واثناء ذلك اكدت على مرض الفالج الذي يأتي في وقت لاحق . لكن ، ماذا بشأن الأولاد وكيف يمكن إنقاذ الزوجة إذا ما كانت العدوى قد اصابتها !! بل هي اصيبت على الاغلب . كيف يمكن معالجتها ؟

في النهاية ، نفد سيل افكاري ، واخرجت بحركة خجلة من جيبي الدليل الطبي ذا الجلدة الحمراء والأحرف المذهبة ، إنه صديقي المخلص الذي لم اتخل عنه منذ خطواتي الأولى في طريقي الصعبة ، فقد انقذني مرات كثيرة عندما كان يتعلق علي تماماً معرفة الوصفات الطبية الضرورية . وبينما كان المريض يرتدي ملابسه قلبت الصفحات خلسة ووجدت ما انا بحاجة إليه . مرهم الزئبق ــ إنه وسيلة ناجعة .

ـ سوف تدهن جسمك بالمرهم ، سأعطيك ستة من ظروف هذا المرهم وسوف تستعمل كل يوم ظرفاً كاملاً ... هكذا ... وأريته بحماس ووضوح كيف يجب ان يدهن ، ممثلاً امامه عملية الدلك على ثوبي براحتي الفارغة .

ـ اليوم تدهن يديك ، وغداً قدميك ، فيما بعد يديك ... وهكذا دواليك إلى أن تنتهي من المرات الست ، عندها تستحم وتأتي إلى هنا . بكل تأكيد أتسمع ؟ بكل تأكيد ! نعم ! كما أنه عليك أن تهتمّ كثيراً بأسنانك بل بفمك عموماً ما دمت تتعالج وسأعطيك شراباً للغرغرة كي تتغرغر بعد الطعـام ، حتماً ...

ـ ماذا عن حلقي ؟ سأل المريض بصوت أبحّ . وعندها لاحظت أن المريض قد انتعش عند كلمة غرغرة فقط .

ـ نعم نعم الحلق .

بعد عدة دقائق خرجت فروة الخرفان من أمام عيني واتجهت نحو الباب فانحشر للقائها رأس نسائي يهم بالدخول ...

بعد بضع دقائق خرجت من غرفة العيادة نصف المعتم المؤدي إلى الصيدلية كي أحضر السجائر فسمعت صوتاً مبحوحاً يقول :

ـ إن علاجـه سيىء . إنه شاب . أتعـرف أنا مريض في حلقي وهو يفحص ويفحص مرة الصدر وأخرى البطن ما أكثر المرضى هنا ، وها هو يمضي نصف النهار يفحص مريضاً واحداً ... أترى بعد قليل سيحل الظلام . آه يا إلهي حلقي يؤلمني وهو يصف لي مرهماً للأرجل !

وأكد كلامهما صوت نسـائي متلعثم بعض الشيء :

ـ إنه غير مكترث ، غير مكترث . ثم اختفى الصوت فجأة .

كنت أمر بسرعة مرتدياً ثوبي الأبيض ... لكنني لم أحتمـل فنظرت ، وعرفت ـ على الرغم من نصف العتمة ـ اللحية التـي تشبه الليف الخشن ، والجفنين المتورمين ، وعيني الدجاجة . وعرفت الصوت المبحوح المرعب . أدخلت رأسي بين كتفي ، وجمعت بدهاء نفسي داخل

ثوبي فاختفيت . لقد كنت مخطئاً وشعرت بألم يوبخني في ضميري . كان الأمر مزعجاً تماماً .

ايمكن ان يذهب كل هذا سدى ... ؟!

... لا يمكن إطلاقاً ! امضيت شهراً كاملاً وانا انظر بانتباه رجل الامن كل يوم صباحاً في سجل المرضى ، منتظراً ان التقي بكنية زوجة المستمع المنتبه لحواري الداخلي عن السفلس ؛ شهراً كاملاً انتظرت الرجل ايضاً ، لكن احداً لم يأتِ . وبعد شهر انطفأ في ذاكرتي ولم يعد يقلقني واصبح منسياً .

... لأن اياماً وايلماً تمر ، ولأن كل يوم جديد من أيام عملي في هذه الغابة المنسية كان يحمل لي حوادث عجيبة واشياء محيرة تجبرني ان انهك دماغي ، تهت مئات المرات ... لكنني ما إن اتيه حتى اشحذ همتي من جديد وابعث أملي في هذا الكفاح .

الآن ، بعد أن مضت سنوات كثيرة ؛ وبعيداً عن تلك المشفى ذات الطلاء الأبيض المتقشر ... أتذكر الطفح الذي يشبه النجوم على صدره . أين هو ؟ ماذا يفعل ؟ آ ... اعرف ، أعرف ، إذا كان حياً حتى الآن فإنه يسافر هو وزوجته من حين لآخر إلى المشفى القديمة يشكوان من تقرح في الأرجل . واتصور تصوراً واضحاً كيف ينزع ثيابه ويستجدي العطف . والطبيب الشاب ، رجلاً كان أو امرأة في ثوبه الأبيض المرقع ينحني نحو رجلي المريض ويضغط بإصبعه العظم فوق التقرح باحثاً عن السبب . يجد السبب ويكتب في طبلة المريض ، (السفلس في مرحلته الثالثة) ومن ثم يسأل عما إذا كانوا اعطوه مرهماً اسود للعلاج .

وهكذا عندما أتذكره ، يتذكرني أيضاً ، هذا هو العام السابع عشر ، ثمة ثلج خلف النافذة ، وستة ظروف مغلفة بورق من النايلون ، ست لفافات لزجة غير مستعملة ...

ـ كيف لا ، كيف لا ، لقد وصف لي ... سيقول ، ويحدق لكن دون سخرية هذه المرة ، بل بقلق أسود في العينين .

اما الطبيب فسيصف له يود البوتاسيوم ، ومن المحتمل ان يصف له وصفة أخرى .

ومن المحتمل أيضاً ان ينظر نظرة خاطفة في الدليل الطبي كما كنت افعل ... سلاماً يا رفيق !

* * *

« ... بالمناسبة ، يا زوجتي الغالية ، ابلغي تحياتي القلبية للعم سفرون إيفانوفيتش ... وعداً عن ذلك يا امرأتي العزيزة ، اذهبي إلى دكتورنا ، وأره نفسك ، إذ إنني منذ ستة اشهر مصاب بمرض بشع هو السفلس . وعندما كنت عندك في العطلة لم اكاشفك بهذا . تعالجي .

زوجك ، أن . بوكوف » .

عضت المرأة الشابة بأسنانها على طرف منديلها الصوفي ، وجلست على المقعد الطويل تجهش باكية ، وقد تدلت على جبينها خصل شعر اشقر مبلل بثلج ذائب .

قالت بصوت مرتفع :

ـ أليس سافلاً ؟ آ ... ؟

ـ نعم سافل . اجبت بحزم .

بعد ذلك حان وقت ، هو اكثر صعوبة ، واشد تعذيباً ، إذ كان علي أن اطمئنها . لكن كيف لي أن افعل ذلك ؟ تحادثنا طويلاً تحت ضجيج أصوات المنتظرين في الممر الذين لم يعودوا يطيقون صبراً ...

بحثت هنالك في أعماق زوجي التي لم تمت بعد تجاه العذابات الإنسانية ، عن كلمات دافئة ... حاولت قبل كل شيء أن أقضي على شعور الخوف لديها .... وأشرت إلى أننا لا نعرف شيئاً على وجه الدقة بعد ، وأننا لا يجوز أن نخلد لليأس قبل الفاجعة في معالجة هذا المرض اللعين ــ السفلس . .

ــ إنه سافل سافل . نشجت المرأة الشابة وغرقت في دموعها .

فعقبت :

ــ نعم ! إنه سافل .

وهكذا شتمنا لمدة طويلة بكلمات نابية « الزوج العزيز » الذي جاء إلى بيته زيارة ثم رحل إلى موسكو . وفي النهاية جف وجه المرأة من الدموع ولم يبق إلا البقع فقط ، وتحرك جفناها بصعوبة فوق عينيها السوداوين اليائستين . قالت بصوت معذب متألم :

ــ ماذا سأفعل ؟ عندي طفلان .

قلت :

ــ اصبري ! اصبري قليلاً سيصبح واضحاً ماذا ستفعلين .

طلبت القابلة بيلاجيا إيفانوفنا ، واختلينا ثلاثتنا في عنبر مستقل توجد فيه طاولة لفحص النساء .

آه ياله من وغد ، آه ، وغد . قالت بيلاجيا إيفانوفنا بقرف وبصوت مبحوح . التزمت المرأة الصمت ، كانت عيناها كحفرتين سوداوين تحدقان عبر النافذة في الشفق ..

كان هذا الفحص واحداً من أكثر الفحوصات التـي شددت فيهـا انتباهي شداً كبيراً في حياتي . لم نترك أنا وبيلاجيا إيفانوفنا ، خليـة واحدة في جسدها إلاّ فحصناها ولم نعثر في اي مكانٍ على أي شيء يثير الشـكوك .

قلت وأنا أتمنى بلهفة الاّ تخدعني آمالي ، والا تظهر القرحة الاولى المرعبة ملتئمة في أي مكان :

ـ أتدرين ؟ كفي عن القلق ! ثمة امل . امل كبير . صحيح انـه يمكن حدوث كل شيء لكن ، الآن تبدين سليمة تماماً .

سألت بصوت ابح :

ـ لا يوجد ؟ لا ؟ . وأشرقت عيناها ، وتوردت وجنتاها . لكن ، ماذا لو حصل فجاة ؟ آ ؟

فجاة ؟ آ ؟

قلت بصوت خفيض لبيلاجيا إيفانوفنا :

ـ إنني لا افهم شيئاً ، وبالاستناد الى ما قالت يجب ان تكون معدية ، لكن ، ليس ثمة شيء .

وردّت بيلاجيا إيفانوفنا كالصدى :

ـ نعم ، ليس ثمة شيء .

وتحدثنا بضع دقائق اخرى مع المراة عن الجوانب العاطفية في حياتها ، وعن مواعيد مختلفة .. وفي النهاية حصلت المراة على عقوبة مني بأن فرضت عليها المجيء الى المشفى دورياً .. ثم نظرت الى المراة

فرأيت أنها ممزقة إلى نصفين ؛ إذ أحياها الأمل ، لكنه لم يلبث أن مات . بكت من جديد ثم انسحبت كالظـل المعتم ؛ ومنذ تلك اللحظـة أصبحت وكأن سيفاً مسلطاً على رقبتهـا ، أخـذت تظهـر في غرفـة العيادة كل سبت صامتة . ضمر وجهها وفتأت عظام وجنتيهـا نتوءاً حـاداً وغارت عيناها وأحاط بهما ظل داكن ، وتدلت شفتاها الى الأسفل ، من شدة انشغال فكرها . كانت تحل شالها بحركات معتادة ، ثم نخرج ثلاثتنا الى العنبر النسائي لنفحصها .

لم نعثر على شيء بعد فحوصات الأسابيع الثلاثة الأولى ؛ وبعدها أخذت تتعافى شيئاً فشيئاً ، فانبعث في عينيها ألق الحياة ، وعادت إلى وجهها نضرته ، وذهبت عنه التشنجات . كبر أملنا ، وزال الخطر .

وأخذت في السبت الرابع أتحدث بثقة كبيرة ، لأننا قطعنا أكثر من تسعين بالمئة من الطريق نحو النهاية الناجحة . وقد مرت مدة الواحد والعشرين يوماً الأولى المعروفة ، ولم يبق إلا المفاجآت التي يمكن أن تحصل عندما تظهر القرحة الأولى على نحو متأخر جداً . وانتهت فيما بعد مراحل المفاجآت والآمال ، ففي آخر زيارة ، رميت المرآة العاكسة بعد أن فحصت غددها لآخر مرة وقلت لها :

ــ تستطيعين الا تأتي بعد الآن فانت في منأى عن أي خطر ، إن حظك رائع .

سألتني بصوت لا يمكن ان ينسى :

ــ ألست مريضة بشيء ؟

ــ لا ، أبداً .

لا تكفيني مقدراتي كي اصف وجهها ، أذكر فقط انها انحنت الى اسفل حتى خاصرتها ثم اختفت .

غير أنها جاءت مرة أخرى تحمل في يديها لفة فيها رطلان من الزبدة وعشرون بيضة . وبعد جدال طويل معها لم آخذ الزبدة والبيضات . وكثيراً ما تفاخرت بهذا الفعل في مرحلة الشباب . لكن فيما بعد عندما جعت مراراً في اعوام الثورة تذكرت غير مرة مصباح الكاز والعينين السوداوين وقطعة الزبدة الذهبية التي تسيل من بين الاصابع .

* * *

لماذا أتذكرها الآن يا ترى بعد أن مضت سنون كثيرة جداً ؟ ، ولماذا أتذكر خوفها الذي فرض عليها اربعة أشهر ؟ فالمرأة تلك كانت المراجع الثاني الذي شككت بإصابته بهذا المرض الذي بدلت له أفضل أيام حياتي ، أما الزبون الأول فقد كان ذلك . . . صاحب الطفح النجومي على الصدر .

وهكذا كانت هي الثانية ، وكانت الاستثناء الوحيد ؛ لقد خافت ، الوحيدة التي خافت في ذاكرتي التي تحتفظ بضوء مصباح الكاز الذي كان يضيء عملنا نحن الأربعة : (بيلاجيا إيفانوفنا ، وآنا نيكولايفنا ، وديميان لوكيتش ، وأنا) . .

في تلك المرحلة ، عندما كانت تمر ببطء أيام السبت التي تعذبها . لكأنها تنتظر عقوبة الإعدام ، كنت ابحث «عنه» في ليالي الخريف الطويلة .

كان الموقد الهولندي يدفيء شقة الدكتور حيث يخيم الهدوء . وتخيلت أنني الوحيد في العالم الذي يجلس إلى جانب المصباح . . . هناك في مكان ما تسير الحياة بصخب شديد أما هنا عندي فقد كان المطر ينهمر

منحرفاً ليخربش على زجاج النوافذ ... لكنه ما لبث أن تحول إلـى ثلج صامت ... كنت أجلس ساعات طوال أراجع في سجلات المرضـى القديمة التي تعود لأعوام خمسة خلت ... وقد مرت أمام عيني آلاف، بل عشرات آلاف من الأسماء ، وكنت أعثر عليه كثيراً في هذا العدد الهائل من المرضى . كانت تظهر بين الحين والآخر أسماء أمراض تقليدية مملـة « التهاب قصبات » ، « التهاب حنجرة » ... وغير ذلك .

آه ، ها هو ذا ... « سفلس في المرحلة الثالثة » وعلـى الجانب كتب بحروف كبيرة وخط معتاد :

« مرهم أسود » ثلاث غرامات .

وتراقصت أمام عيني مرات كثيرة الالتهابات الشعبية ، والنزلات الصدرية . لكنها تنقطع فجأة ليظهر « السفلس » من جديد .. وكانت أغلب الملاحظات تشير إلى السفلس في طوره المرضي الثاني ونادراً مايلاحظ الطور الثالث . وعندها كان البوتاسيوم اليودي هو الوصفة العلاجيـة الأكثر أهمية .

وبقدر ما كنت أتابع المراجعة في مجلدات سجلات أسماء المرضى المنسية في العلية والتي تفوح منها رائحة العفونة ، كان الوضوح يزداد في رأسي الغر . لقد بدأت أفهم أشياء عجيبة .

لكن ، أين الإشارات إلى القرح الأولي ؟ لا يبدو أن ثمـة إشارات فبين آلاف وآلاف الأسماء قلما تمر ملاحظة تشير إلى القرحة الأولى . أما المصابون بعدوى السفلس في مرحلتـه الثانيـة فهـم كثر . مـاذا يعني هذا ؟ هم ... إليكم ما يعنيه ...

ــ هذا يعني ، قلت لنفسي في العتمة والفئران تلتهم بقايا الخضار وتفرض رفوف المكتبة ــ هذا يعني أن الناس هنا لا يعرفون شيئاً عـن

السفلس وأن القرحة الأولى لا تخيف أحداً . نعم ، ومن ثم فإنها تجف وتلتئم ويبقى الندب ... ، وبعد ، الا يوجد شيء ؟ بالطبع لا ، ثمة شيء ، إذ تنفجر المرحلة الثانية الحادة من السفلس ، عندما يلتهب الحلق ، وتظهر في الجسم بثور نازّة ، وعندها يذهب سيمون خوتوف / ٣٢ سنة / إلى المشفى فيعطونه المرهم الأسود ... نعم !

اتسع محيط الضوء على الطاولة ، واختفت المرأة الشوكولاتية المرسومة في قاع صحن السجائر تحت كومة الأعقاب .

ـ لابد أن أجد هذا الـ سيمون خوتوف .

خشخشت بين يدي أوراق سجلات المرضى التي أصابها بعض العفن .

١٧ / حزيران / ١٩١٧ استلم سيمون خوتوف ستة ظروف من مرهم الزئبق العلاجي المصنع منذ زمن خصيصاً لإنقاذ سيمون خوتوف .

إنني متأكد أن الطبيب الذي كان يعمل مكاني هنا قال لسيمون وهو يعطيه المرهم :

ـ عندما تدهن ست مرات عليك أن تستحم وتأتي إليّ من جديد ، أتسمع يا سيمون ؟ وبالطبع ، أقسم سيمون ، وشكر الطبيب بصوت أبح ...

نتابع التصفح : بعد حوالي عشرة إلى اثني عشر يوماً يجب أن يظهر سيمون في السجلات ..... إذاً لنتابع ونر ... نرى ... دخان .. خشخشت الأوراق . آخ ، لا يوجد سيمون ! لا يوجد اسم سيمون بعد عشرة أيام ، ولا بعدعشرين يوماً ... إنه غير موجود نهائياً . آخ يالسيمون البائس ، يبدو أن الطفحات الندية أخذت تجف وتنطفيء على جسمه كما تنطفيء النجوم عند الفجر ، وسيموت بكل تأكيد ، ... سيموت

سيمون . ومن المحتمل أن أرى سيمون هذا بقروح المرحلة الثالثة لمرض السفلس عندي في العيادة . هل برئت عظام أنفه ؟ وهل بؤبؤاه متماثلان ؟ تَعس انت يا سيمون !

لكن ، غير سيمون ، هذا إيفان كاربوف . ولماذا يمرض واحد مثل إيفان كاربوف ؟ نعم ، اسمحوا لي ، ولماذا وصف له الكالوميل* مع سكر اللبن بجرعات قليلة ؟ أعرف لماذا إذاً ، لأن عمر إيفان كاربوف عامان ! . وهو مريض بالسفلس في مرحلته الثانية .

قضاء وقدر ! جاؤوا بإيفان كاربوف مغطى بالنجوم ، تحمله أمه بين يديها وهو يرفض الاستسلام لأيادي الأطباء التي تنوي الإمساك به كل شيء مفهوم .

ـ أعرف ، اخمن ، فهمت اين كانت عند الطفل ذي العامين القرحة الأولى . لقد كانت في فمه ، وقد أصيب بالعدوى بسبب الملعقة .

علميني أيتها الغابة ! علمني يا صمت البيت الريفي !

ستتحدث أوراق السجلات القديمة بالكثير الكثير مما يثير الطبيب الشاب . فوق اسم إيفان كاربوف كان اسم :

« افدوتيا كاربوفا ، ٣٠ عاماً » .

من هي ؟ آه ، مفهوم . إنها أم إيفان ، إيفان الذي بكى بين يديها . وتحت اسم إيفان كاربوف كتب اسم :

« افدوتيا كاربوفا ، ٨ سنوات » .

---

* الكالوميل : كلوريد الزئبق . دواء مضاد للميكروبات .

وهذه من تكون ؟ اخته ! كالوميل ...

العائلة كلها موجودة . العائلة ينقصها شخص واحد فقط الأب كاربوف ٣٥ ـ ٤٠ سنة، لكن اسمه غير معروف . ما اسمه ؟ سيدر بيوتر ... هذا ليس مهماً .

« زوجتي العزيزة ... مرض ملعون ... السفلس » .

هذه هى الوثيقة ، كل شيء واضح في الذهن ؛ وعلى ما يبدو وصل من الجبهة الملعونة « ولم يكشف سرّه » ومن المحتمل انه لم يعرف هذا السر كى يبوح به . ثم سافر ، وهنا انتشر المرض ... افدوتيا ... ثم افدوتيا ، ومن افدوتيا إلى إيفان ... وعاء حساء الكرنب ، منشفة...

هاكم اسرة أخرى ، وغيرها ، وغيرها أيضاً . وهاكم هذا العجوز عمره سبعون عاماً . « السفلس في المرحلة الثانية » عجوز . ما ذنبك ؟ ليس لي ذنب . في الكاس المشتركة . ليس جنسياً ، ليس جنسياً . كل شيء واضح ، واضح وأبيض مثل فجر تشرين الباكر . معنى ذلك انني جلست طوال ليلتي وحيداً اراجع الأسماء في سجلات المرضى ، وأراجع الكتب التعليمية الألمانية الرائعة ذات الرسوم الواضحة .

وأثناء سيري إلى عرفة النوم صرخت ، هتفت :

ـ سأكافح ضده ... سأناضل .

* * *

كي تناضل شيئاً ما لا بد ان تراه . وهو لم يبطىء المجي . ودبت الحركة على طريق المزالج ، وحدث ان اتى الي للعلاج مئة إنسان في اليوم

كان النهار يبدأ أبيض سديمياً ، وينتهي بظلام دامس عندما تئز آخر عربات التزلج في طريق عودتها من المشفى .

كان يمر من أمامي وبخبث ، وبصور مختلفة ... إما أن يظهر على شكل قروح مائلة إلى البياض في الحلق عند فتاة مراهقة ، أو على شكل أرجل متقوسة كالسيوف أو على شكل قروح مترهلة تحت الجلد في رجلي عجوز صفراوين . أو على شكل حطاطات نازّة على جسد امرأة نضر . وأحياناً يحتل الجبين باعتزاز وكأنه تاج يشبه كوكب الزهرة .

كان في كثير من الأحيان انعكاساً على الاولاد بسبب حياة آبائهم الطائلة آبائهم الذين يحملون أنوفاً تشبه سروج القوزاق .

وعدا عن ذلك فقد تسلل خفية دون أن ألاحظه . آه ، فقد كنت آتياً من مقاعد الدراسة التو" ! ومع ذلك وصلت بعقلي ووحدتي الى كل شيء . كان يسري هناك في مكان ما ، في العظام ، في المخ ... لقد عرفت الكثير .

ــ طلبوا مني وقتها أن أدهن جسمي ...

ــ بالمرهم الأسود ؟

ــ بالمرهم الأسود ، يا أبانا ، بالأسود .

ــ بشكل متصالب ؟ اليوم الأيدي وغداً الأرجل ...؟

ــ بالطبع ، لكن كيف عرفت أنت يا سيدي ؟ (متملقاً) .

« وكيف لا أعرف ؟ آخ . وكيف لا أعرف ، ها هي ذي ــ المرحلة الثالثة »

ــ أمرضتَ بالسفلس ؟

ــ ماذا تقول ؟ ! .... لم نسمع في عشيرتنا بمرض كهذا !

ــ هه ... إذاً يؤلمك حلقك .

ــ الحلق ؟ نعم ، آلمني حلقي في العام الماضي .

ــ هه ... وهل اعطاك ليونتي ليونتيفيتش مرهماً ؟

ــ بالطبع ! اسود كالحذاء .

ــ سيىء ، عماه ، وهل استخدمته ؟ آخ سيىء !

لقد بددت عدداً هائلاً من الكيلوغرامات من هذا المرهم الأسود ، وكثيراً ما وصفت البوتاسيوم اليودي . وكثيراً ما تلفظت بألفاظ غاضبة . استطعت أن اعيد بعض المرضى بعد الدهنات الست الأولى ، واستطعت ان اقدم لبعضهم الجرعات الأولى من العلاج بالحقن ، لكن ليس للجميع ولبس بصورة تامة .

لكن عدداً كبيراً منهم تسلل من بين أصابعي ، كالرمل في الساعات الرملية ولم استطع العثور عليهم في هـذا السديم الثلجي . آخ لقد اقتنعت تماماً ان السفلس هنا مخيف جداً ، وهو مخيف لأنه لا يخيف احداً من المصابين به . لهذا بالذات تحدثت في بداية ذكرياتي هذه عن المرأة ذات العينين السوداوين وتذكرتها باحترام شديد ؛ احترام شديد لخوفها بالذات . لكنها كانت واحدة لا غير .

* * *

اصبحت اشد عوداً واكثر انتباهاً ، واكثر تجهماً في بعض الأحيان . كنت احلم بذلك اليوم الذي ستنتهي فيه فترة عملي هنا ، وأعود الى المدينة الجامعية ، هناك يصبح كفاحي أسهل بكثير .

في يوم من تلك الأيام الحالكة دخلت امراة الى غرفة العيادة ، كانت شابة جميلة المظهر ، تحمل بين يديها طفلا في اللفافة ، واندفع وراءها

طفلان يتعثران ويتخبطان بجزمتيهما المفرطتي الطول . يمسكان بتنورتها الزرقاء البارزة من تحت فروتها القصيرة .

قالت المرأة ذات الخدين المتوردين بوقار :

ــ الطفح هاجم الأولاد .

لمست بحذر جبين الطفلة المتمسكة بالتنورة فاختبأت في ثنايا التنورة حتى اختفت عن الأنظار ، وبرز وجه سمج غير عادي يشبه فانكا(*) مستطلعاً من جانب التنورة الثاني . لمسته : حرارة الجبين عادية تماماً وليست مرتفعة .

ــ اكشفي يا عزيزتي ، عن الطفلة الملفوفة .

فكت القماط عن الطفلة فتكشف الجسد العاري عن بثور لا يقل عددها عن نجوم السماء في ليلة جليدية باردة ، انتشرت هذه البثور على كامل الجسد ، وانتفخت الى جانبها حبوب وردية من الأرجل حتى الرأس .

فكر « فيانكا » أن يدافع عن نفسه فبكى .

جاء ديميان لوكيتش كي يساعدني ...

سألت الأم وهي تنظر بعينيها المطمئنتين :

ــ اهو الرشح ؟

دمدم ديميان لوكيتش وهو يلوي فمه باشمئزاز وحزن :

ــ كل مدينة كاربوف مصابة بالرشح !

(*) فيانكا : لعبة لها هيئة مدببة ، وبسبب ثقل رجليها الشديد تبقى واقفة دائماً .

ـ ماذا يكون إذاً ؟ سألت الأم بينما كنت أنظر في جبينها وصدرها اللذين انتشرت فيهما البقع .

البسي ! قلت لها .

جلست بعد ذلك إلى الطاولة ، ووضعت رأسي بين يدي وتثاءبت (لقد كانت واحدة من بين الأخيرات إذ كان رقمها ٩٨) ، ثم قلت :

ـ انت مريضة ، يا خالــة ، وكذلك أولادك « بمرض ملعون » ؛ مرض مخيف وخطير . يجب عليكم جميعاً أن تبدؤوا بالعلاج من الساعة . علاج طويل .

من المؤسف أن الكلمات لا تستطيع أن تصور عدم الثقة في عيني الحرمة الجاحظتين الزرقاوين . فتلت الطفل كالحطبة بين يديها ونظرت ببله في رجليه وسألت :

ـ من اين هذا ؟ ثم ضحكت ضحكة ساخرة ملتوية .

اجبتها وقد بدات أدخن السيجارة رقم ٥٠ لهذا اليوم :

ـ من أين ؟ ! لا فائدة من هذا السؤال . الأفضل أن تسألي ماذا سيحدث مع أولادك إذا لم يتعالجوا .

فأجابت وقد اخذت تلف الطفل بالقماط :

ـ ماذا يمكن ان يحدث ؟ لن يحدث شيء . . .

اذكر تماماً ، وكأن الأمر يحدث الآن أن ساعتي كانت موضوعة على الطاولة امام عيني وانني لم اتحدث أكثر من ثلاث دقائق حتى اخذت المرأة تنحب وأنني كنت سعيداً جــداً لتلك الدموع ، إذ لم يكن ممكناً

الاستمرار في الحوار الى آخـره إلا بفضل تلك الدمـوع التي سببتها ـ عن قصد ـ كلماتي القاسية والمخيفة .

وهكذا بقوا في المشفى .

ـ من فضلك يا ديميان لوكيتش ضعهم في الجنـاح المستقل ، وسنتدبر الأمر فيما يخص مرضى التيفوئيد ، سنضعهم في العنبر الثاني ، وسأذهب غداً الى المدينة كي أحصل على الموافقة لفتح قسم خاص وثابت لمرضى السفلس .

تفجر اهتمام عظيم في عيني مساعدي وقال :

ـ ماذا تقول يا دكتور (كان شديد التشاؤم) ؟ وكيف سنستطيع تدبر الأمر وحدنا ؟ وماذا عن الأجهزة . لا يوجد ممرضات إضافيات ... والطبخ .. ؟ والأدوات والحقن ؟ ! هززت راسي بغباء وعناد وقلق ..

سأحقق ذلك .

* * *

مرّ شهر ...

كان ضوء المصابيح ذات الأغطية الصفيحية منارا في الغرف الثلاث للقسم الجديد المغمور بالثلج . كانت غطاءات الأسرة البيض ممزقة ، وكان ثمة محقنان فقط لا غير ؛ واحد صغير يتسع لغرام واحد ، وآخر لخمس غرامات ـ من نوع ليوئير ـ . بكلمة واحدة إنها مأساة تدعو إلى الشفقة حملها الثلج الى هنا . لكن ، ... ثمة محقنة تقف باعتزاز وحدها ، استطعت بفضلها ـ كنت أكـاد أتجمد مـن الخوف ـ ان اقوم بحقن « الملح الذهبي » وهي حقن جديدة وصعبة وملغزة بالنسبة إلي .

وبعد ! كان ضميري مطمئناً . فقد رقد في هذا القسم سبعة رجال وخمس نساء ، ويوماً عن يوم أخذت تتلاشى أمام عيني الطفحات النجومية .

وفي إحدى الأمسيات ، كان ديميان لوكيتش يمسك المصباح الصغير ليسلط الضوء على فيانكا الخجول ، كان فمه مدهوناً بعصيدة السميد ، لكن ، لا نجوم عليه البتة ... وهكذا مرّ الأربعة تحت ضوء المصباح ... ليريحوا ضميري .

سألت الأم وهي تصلح بلوزتها .

ـ سنخرج غداً من المشفى من كل بدّ .

فأجبتها :

ـ لا ، لايجوز ، لابد من الصبر على متابعة برنامج العلاج .

ـ لا ، لست موافقة ، لدينا أشغال كثيرة في البيت . شكراً للمساعدة أخرجونا غداً . نحن الآن معافون .

حمي الحوار فأصبح كالنار وانتهى على النحو التالي :

قلت لها وأنا أشعر أنني أصبحت أحمر :

ـ أنت تعرفين ، أنت تعرفين ... أنت حمقاء !...

ـ لماذا هذه الشتائم ؟ أهذه هي العادة عندكم ؟ تشتمون ...

ـ وهل يكفي أن أقول لك « حمقاء » أنت لست حمقاء ، بل .. بل ... انظري الى فيانكا ! هل تريدين أن تقتليه ؟ هذا ما لن أسمح لك بـه .

وبعدها بقيت في المشفى عشرة أيام أخرى .

عشرة أيام ، وبعدها لن يمنعها احد عن الخروج وأنا كفيل بذلك .

لكن ، كونوا على ثقة كان ضميري مطمئناً بل انني لست نادماً على استخدام كلمة حمقاء . ماذا يمكن أن تكون الشتائم بالمقارنة مع هـذا الطفح النجومي ؟

وهكذا مضت السنون . منذ زمن بعيد فرقت الأقـدار والأيـام الصعبة بيني وبين القسم المغمور بالثلج . ماذا يمكن أن يكون هناك ، الان ، ومن ؟ أنا واثق أن الأمور افضل الآن . البناء مكلس بالأبيض ، ومن المحتمل أن تكون البياضات جديدة . لايوجد كهرباء بالطبع . ومن الممكن انه ، وأنا اكتب هذه السطور ، ثمة رأس شاب ينحني على صدر مريض ليفحصه . ومصباح الكاز يلقي اشعته الصفراء على جلد المريض المصفر . .

سلاماً يارفيقي .

* * *

المنشفة ذات الديك

ليس لدي ما اصفه لمن لم يقطع على ظهور الجياد الطرق المقفرة التي تعبر الغابات الكثيفة ؛ فهو على كل حال لن يفهم شيئاً . اما من قطعها فلن أذكره .

أقول باختصار : قطعت برفقة الحوذي في ليلة كاملة الفراسخ الأربعين التي تفصل بين مدينة غراتشيفكا مركز القضاء ومشفى (مورنيسك) . ومما يثير الدهشة أننا كنا في الساعة الثانية يوم السادس عشر من ايلول عام / ١٩١٧ / عند آخر حانوت على حدود تلك المدينة الرائعة غراتشسيفكا ، وأننا في الثانية وخمس دقائق في السابع عشر من ايلول من عام / ١٩١٧ / نفسه الذي لا ينسى كنا نقف في فناء مشفى (مورينسك) على الأعشاب الميتة التي بللها مطر أيلول . كنت اقف وقد تصلبت رجلاي من شدة البرد إلى درجة أنني لم أبرح الفناء ، بل اخذت اتذكر تذكراً مبهماً مقلباً صفحات كتبي الجامعية ، ومحاولاً بغباء ان اتذكر : أحقاً يوجد مرض يؤدي إلى تصلب انسجة العضلات ، أم أن الامر مجرد حلم تراءى لي البارحة في قرية غرابيلوفكا ؟ وما اسم هذا المرض اللعين باللاتينية ؟ . كان الألم الذي لا يحتمل في كل عضلة من عضلات رجلي يذكر بألم الأسنان . أما اصابع رجلي فلا ضرورة للحديث عنها إذ لم تعد تتحرك في الحذاء واستسلمت لحالتها . أعترف أنني في لحظة الضعف هذه لعنت الطب ، ولعنت طلب الانتساب إلى الجامعة الذي قدمته منذ خمس سنوات إلى رئيسها .

في تلك اللحظات انهمر عليّ مطر غزير كأنه يمر عبر منخل ، فانتفخ معطفي وأصبح كالإسفنجة . حاولت عبثا أن أمسك بأصابع يدي اليمنى

قبضة الحقيبة ، فبصقت في نهاية الأمر على العشب المبلل إذ إن أصابعي كانت عاجزة عن إمساك اي شيء ، وتذكرت من جديــد ــ انــا الممتلىء بالمعارف المختلفة التي حصلتها من كتب الطب الغنية ــ مرض النشل . فكرت قانطاً ثم قلت في نفسي إن الشيطان وحده يعرف لمــاذا أفكر في هذا المرض .

قلت وقد ازرقت شفتاي وتجمدتا :

ــ يجب اع . . اعتياد السفر على هذه الطر . . طرقات .

قلت هذا وانا أحملق بحقد إلى الحوذي ، دون أن اعرف ســبباً لحقدي هذا ، علما انه ــ والحق يقال ــ لا يحمل ذنب هذه الطريق .

أجاب الحوذى وهو بالكاد يحرك شفتيه اللتين يعلوهما شاربان صغيران شائبان :

ــ آه أيها الرفيق الدكتور ! منذ خمس عشرة سنة وانا أسافر على هذه الطريق ولم اعتدها بعد .

ارتعشت ونظرت بأسى نحو البناء الأبيض المحفّر ذي الطابقين ، ونحو الجدران الخشبية غير المطلية لبيت مساعد الطبيب ، ثم نحــو مقرّي المقبل : إنه بناء شديد النظافة مؤلف مــن طابقين ، ذو نوافــذ غامضة تشبه التوابيت . تنهدت تنهيدة طويلة . عندها لاحت في ذهني على نحو غائم ــ بدل الكلمات اللاتينية ــ عبارة جميلة كان قد غناها في ذهني المعتل من البرد والارتجاف مغنٍ ذو فخذين أورفين ، يغني بصوت رجولي مرتفع :

« مرحباً بك . . . ايها الم . . جا المقد . . س . . » .

وداعاً ، وداعا إلى أجل بعيد ، وداعاً يا مسرح البلشوي المذهب الجميل ، وداعاً يا يا موسكو ، أيتها الواجهات ... آه وداعاً ...

« قلت في نفسي بيأس وحنق : سأرتدي فروة في المرة القادمة » .

ثم حملت الحقيبة من أحزمتها بيدي المتصلبتين وقلت في نفسي : سأرتدي في المرة القادمة فروتين على الرغم من أن المرة الثانية ستكون في تشرين الأول ، ولن أسافر قبل شهر من الآن إلى غراتشيفكا ... تصوروا ... كان علينا أن ننام ... لقد قطعنا عشرين فرسخاً في الليلة مظلمة كظلام القبر حتى وصلنا إلى غرابيلوفكا ، وفيها كان يجب أن ننام ... وقد سمح لنا المدرس ... وانطلقنا منها اليوم في السابعة صباحاً وهكذا نسافر ... يا إلهي يا قديسين ... بسرعة أشد بطئاً مما لو كنا نمشي ... تتخبط العجلة الأولى في حفرة ، وتطير الثانية في الهواء ، وتقع الحقيبة على القدمين .. .بو ... فأميل على جانبي ، ثم على الآخر ، ويندفع انفي إلى الأمام ، ويرتد قفاي إلى الخلف ، في حين ينسكب المطر من فوق وينسكب فترتجف العظام . هل كنت أتصور من قبل أن المرء يتجمد في السهوب في منتصف أيلول الحار كما يحدث في الشتاء القارس ؟! يبدو أنه يتجمد ... وإلى أن يحين وقت الموت برداً فإنه يرى أشياء لا تتغير : « عن اليمين سهوب مقفرة محدودبة ، وعن اليسار أدغال باهتة بجوارها خمس مزارع رمادية مهملة أو ست ، يبدو أن لا روح حية فيها .. .سكون ... إنه السكون المطبق ... » .

استسلمت الحقيبة في نهاية المطاف . إذ دفعها الحوذي ببطنه نحوي ، وأردت أن أتناولها من أحزمتها ، لكن يدي تمنعت عن العمل ، فهوت الحقيبة المنتفخة رفيقة دربي المملوءة بالكتب والأمتعة المختلفة على العشب بعد أن صدمت رجلي .

ــ آه يا إلهي ، قال الحوذي خائفاً ، لكنني لم أبدِ أي اعتراض إذ كانت الأمور كلها متساوية عندي . حتى لو قطعت رجلاي فلن أشعر بهما .

وشرع الحوذي يصرخ ويضرب الباب بيديه كما يضرب الديك بجناحيه :

ـ هيه ، هل من احد هنا ؟ هيه لقد وصل الطبيب !

عندها ظهرت بعض الوجوه من خلال الزجاج المعتم لبيت مساعد الطبيب ؛ التصقت بالزجاج. ثم صرّ الباب ورايت كيف جرى نحوي على العشب شخص يرتدي معطفاً بالياً وينتعل جزمة مهترئة . نزع قبعته باحترام وسرعة ، ثم اقترب مني خطوتين ، ولسبب ما ابتسم ابتسامة خجولة ورحب بي بصوت أجش قائلاً :

ـ مرحباً بك أيها الرفيق الدكتور !

سألته : ـ من أنت ؟

فقدم الشخص نفسه :

ـ انا إيغوريتش ، الحارس هنا . إننا ننتظركم ننتظركم !

وعلى الفور أمسك بالحقيبة ووضعها على كتفه . وانطلق في حين رحت أعرج خلفه محاولاً عبثاً أن ادس يدي في جيب البنطلون لآخرج حافظة نقودي .

يحتاج المرء في الحقيقة ـ اشياء قليلة جداً ، وقبل كل شيء يحتاج النار . اذكر إنني عندما انطلقت من موسكو الى هذه الغابة النائية (مورينسك) كنت قد صممت على أن أكون وقوراً . لكن التشباب في هيئتي قد أفسد علي حياتي منذ اللحظات الأولى . إذ كان عليّ ان اعرف بنفسي امام كل شخص .

ـ انا الدكتور فلان .

وكان لا بدّ لأي شخص يسمع ذلك من أن يرفع حاجبيه ويسأل :

ــ أحقاً ذلك ؟ ظننتك لما تزل طالباً .

ــ لا ، فقد انهيت دراستي . كنت أجيب عابساً ثم افكر : « لا بد لي من اقتناء نظارتين ، هذا هو الأمر » لكنني لم أكن في حاجة لشراء نظارتين ، فعيناي سليمتان ، لم تعكر صفوهما تجارب الحياة . ولأن النظارتين لن تساعداني في شيء ، بل ستثير ابتسامات الآخرين ومداعباتهم التي لا أستطيع الرد عليها ، حاولت أن ألتزم سلوكاً خاصاً يستدعي الاحترام :كان أتحدث باقتضاب واتزان، وأن أقلّ من الحركات المندفعة ما أمكن ، وإلا أبدو كابن ثلاثة وعشرين عاماً أنهى الجامعة لتوه بل أمسي بهــدوء .

اما الآن فقد فهمت بعد مضي سنوات عدة أن سلوكي هذا كان شديد السوء . وها أنذا أنقضُ الآن مخططي السلوكي غير المكتوب إذ اجلس متكوما على نفسي مرتدياً جواربي فقط ــ ليس في اي مكان من غرفة المكتب بل في المطبخ امد نفسي ــ كعابد النار ــ بشوق وإلهام نحو حطب أشجار البتولا في الموقد . إلى يساري ثمة برميل مقلوب رأساً على عقب . وضعتُ عليه حذائي ، وبالقرب منهما ديك منتوف مسلوخ ذو رقبة مدماة ، وقد تكوم الى جانبه ريشه المختلف الألوان .

وفي واقع الامر ، فقد قمت ــ على الرغم من حالة التجمد التي انا فيها ــ بسلسلة من الأعمال التي تتطلبها الحياة : اذ كلفت اكسينيا ذات الأنف الحاد ، زوجة إيفوريتش بمهام الطبخ لي ، ونتيجة لذلك نحِر الديك تحت يديها . فقد كان لا بد لى من أن آكل شيئاً ، وكذلك فقد تعرفت على الجميع هنا : مساعدي ديميان لوكيتس والقابلتين بيلاجيا إيفانوفنا وآنا نيكولايفنا ، وطفتُ في انحاء المشفى فاقتنعت اقتناعاً تاماً انه مجهز تجهيزاً جيداً بالأدوات اللازمة . وبالقدر نفسه كانت قناعتي تامة (بيني وبين نفسي بالطبع) انني أجهل كيفية استخدام

الكثير من هذه الأدوات البراقة الجديدة . ولا تكمن المصيبة في انني لم المسها من قبل بل في انني ـ بصراحة ـ لم أرها بتاتاً .

دمدمت بأسلوب شديد الإيحاء :

ـ هم .. هم ... يبدو أن لديكم تجهيزات طبية رائعة .

فعلق ديميان اوكيتش بأسلوب لطيف :

ـ كيف لا ؟! جمع هذه الادوات كلها الطبيب السابق ليوبولد ليوبولدوفيتش . فقد كان يجري العمليات طوال النهار .

عندها نظرت اسيان نحو الخزائن ذات المرايا المتلألئة ، وشعرت أن العرق البارد قد بللني .

بعد ذلك طفنا العنابر الخالية من المرضى . ففهمت فهما اكيداً انها تتسع لاربعين شخصاً بسهولة واسلفني ديميان لوكيتش بقوله :

ـ كان ليوبولد ليوبولدوفيتش يضع فيها خمسين مريضاً .

ولسبب ما عقبت آنا نيكولايفنا ذات التاج الأبيض من الشعر الأشيب :

ـ أنت دكتور شاب .... شاب إلى حد يثير الدهشة ... إنك تبدو طالباً .

« قلت في نفسي « اللعنة » يا للشيطان . لقد تآمروا علي وبالله » .

فقلت بقرف وجفاف :

ـ هم .. م .. م .. لا ، انا .... اعني ... انا ... نعم .. شاب ...

من ثم ذهبنا الى الصيدلية فلاحظت فوراً انه لا ينقصها إلا حليب العصفورة فقد كانت غرفتاها المعتمتان تعبقان بروائح الاعشاب المنتشرة واكتظت رفوفهما بما شئت من الأدوية ، حتى تلك الأدويــة الأجنبية المخترعة حديثاً ، ولا ادري إن كان ثمة داع لأن اضيف انني لم أسمع عن هذه الأدوية شيئاً البتة .

قالت بيلاجيا ايفانوفنا باعتزاز :

ـ كان ليوبولد ليوبولدوفيتش يصفها للمرضى .

قلت في نفسي وأنا اشعر باحترام شديد تجاه ليوبولد المجهول الذي رحل من هنا بهدوء : « كان ليوبولد هذا شخصاً عبقرياً بحق » .

ناهيك عن حاجة الإنسان إلى النار فإنه يحتاج إلى التأقلم أيضاً كنت قد التهمت الديك منذ وقت قصير ، وكان ايغوريتش قد حشا فراشي بالحشية وغطاه بالملاءات ، وكان المصباح مضاء في غرفة المكتب في منزلي هذا . جلست في غرفة المكتب أنظر مسحوراً اتفحص الإنجاز الثالث لليوبولد الاسطوري : فقد كانت رفوف المكتبة مملوءة بالكتب الـى آخرها ، واستطعت أن أحصي بسهولة ثلاثين كتاباً من كتب المعلومات الأساسية في الجراحة باللغتين الروسية والألمانية ، وغير ذلك من كتب الطب الباطني ، والأطالس الرائعة للأمراض الجلدية !

مضى المساء ، وشعرت بالألفة .

قلت في نفسي بانزعاج وغضب : « لست مذنباً في شيء ، فأنــا احمل شهادة الدبلوم ، وعندي خمس عشرة خمسة(*) . وقد نبهتهم هناك في المدينة الكبيرة انني أرغب أن أكون طبيبا مساعداً . لا . ابتسموا وقالوا : « ستتأقلم » . هكذا اذن !! تأقلم . وماذا لو أتوني بحالــة

---

* خمسة : هي العلامة التامة في نظام الامتحان الروسي . (المترجم)

فتاق ؟ اشرحوا لي كيف « سأتأقلم » معها ؟! اشرحوا لي خاصة : ما شعور المريض بالفتاق وهو بين يدي ؟ هل سيتأقلم هو مع العالم الاخر (وشعرت بالبرد يلسع ظهري) ...

وماذا عن التهاب الزائدة الدودية القيحي ؟ ها ؟ وحالات الذبحة الدفتيرية عند الفتية الريفيين ؟ وماذا لو اضطررت لشق الرغامى ؟ فانا بدون هذه البلية ، لن أكون سعيدا جدا ... وماذا عن التوليد ؟! االنسى التوليد !؟ ماذا سافعل مع الولادات العسيرة ؟! يا لي من رجل ساذج ! كان علي ان ارفض المجيء الى هنا ، كان علي ، وكان بامكانهم ان يجدوا لانفسهم ليوبولدما . » .

في جو من العتمة والحزن رحت اذرع غرفة المكتب جيئة وذهابا. وعندما كنت اقف بجانب المصباح كنت أرى كيف يتأرجح خيالي في عتمة الحقول اللامتناهية الى جانب ضوء المصباح المنبعث من النافذة.

وخطرت في ذهني فكرة غبية مفاجئة « انني اشبه ديمتري الكاذب »(*) ثم جلست من جديد وراء الطاولة .

مرت ساعتان وانا أعذب نفسي ، حتى وصلت إلى مرحلة لم اعد اطيق فيها الخوف الذي احطت نفسي به . عندها بدأت أهدىء من روعي وأرسم بعض الخطط المستقبلية .

لا بأس ... يقولون إن حضور المراجعين الى المشفى نادر في هذه الفترة . إذ ينشغل الفلاحون في القرى بحلج الكتان ، كما أن الطرق غير سالكة ... « إذاً يمكنهم أن يحضروا حالة فتاق ــ نطق صوت جلف في رأسي ــ لأن المصاب بالرشح (مرض سهل) لن يغامر بالحضور عبر

(*) ديمتري الكاذب : هو شخصية كاذبة ادعت انها ديمتري ابن القيصر ، علما ان هذا الطفل قتل وهو طفل .

الطرق المغلقة أما المصاب بالفتاق فإنهم سيحملونه إليك حتماً . اطمئن أيها الدكتور العزيز » .

ارتعدتُ لهذه الفكرة ! لأنها لم تكن غبية البتة ! أليس كذلك ؟

فقلت للصوت : « اسكت ! ليس شرطاً أن يكون الفتاق . ما هذا الهبل ؟ أقبلت على فعل شيء فلا تقل قد لا أفلح » .

فأجاب الصوت ساخراً : « تدعي أنك ستفلح ، فاقبل التحدي إذاً » .

حسناً ... لن أفارق الدليل الطبي أبداً ... إذا كان لا بد من وصف الدواء فإنني سأفكر ريثما أغسل يديّ وسيكون الدليل مفتوحاً بجانب سجل المرضى مباشرة . سأصف للمرضى وصفات سهلة لكنها نافعة ، مثلاً نترات الساليسيليزم(*) نصف غرام ، حبة واحدة ، ثلاث مرات في اليوم .

علق محدثي الداخلي بسخرية واضحة « يمكنك أن تصف الصودا ! » .

— وما علاقة الصودا هنا ؟ بل سأصف الإيبكاكوانكا (**) المحلولة ... ب ١٨٠ أو ٢٠٠ ملم ماء . أتسمح بذلك ؟

وعلى الرغم من أن أحداً لم يطلب مني في تلك اللحظة في وحدتي عند المصباح الإيبكاكوانكا فقد قمت هلعاً أتصفح دليل الوصفات الطبية لأتأكد من هذا المستحضر ، وأثناء ذلك قرأت على نحو آلي عن وجود مستحضر « الإنيسيبين » في عالم الطب .

(*) الساليسليزم : الصوديوم الصفصافي : دواء مسكن يشبه الإسبرين .

(**) إيبكاكوانكا : (كلمة برتغالية) تعني عرق الذهب ، تستعمل جذورها في الطب كدواء مقشع مساعد على الإقياء .

لا بد انــه « سلفات اثير مــع حامض ثنائي الغول الكيني » ... يبدو انه ليس له طعم الكينا ! لكن ما فائدته ؟ ولأي الأمراض يوصف ؟ هل هو مسحوق ؟ ليأخذه الشيطان !

« فلندع الإنيسيبين جانباً ... لكن ماذا ستفعل مع حالة الفتاق؟ » هكذا الح علي الخوف متمثلاً بصوت يأتيني من الاعماق .

فدافعت عن نفسي دفاع الغاضب : « سأضعه في البانيو ، نعم في البانيو وساحاول إعادة الأمور إلى نصابها » .

فأجاب الخوف بصوت شيطاني : « إنه فتق محتصر ، ياملائكة ، فعن اي بانيو تتحدث ! محتصر ، لابد من الجراحة .... » .

عندها استسلمت بل كدت ابكي ، وصليت متوجهاً نحو العتمة خلف النافذة راجيا أن يحدث أي شيء عدا الفتاق المحتصر .

قال لي الإرهاق :

« نم قليلا أيها الطبيب التعس . ستشبع نوماً الآن وغداً سيصبح كل شيء واضحاً . هدىء من روعك أيها الشاب الخائر الأعصاب . انظر من حولك فالظلمة خلف النوافذ هادئة ، والحقول المتجمدة نائمة وليس ثمة فتاق . وغداً ستغدو الأمور واضحة . ستتكيف ... نم الآن ... دع الأطلس فلن تفهم منه شيئاً على كل حال ... فتاق دائري .... » .

لم افهم كيف طار ذلك الصوت . اذكر أن المزلاج قد قرقع بعنف وأن اكسينيا قد قالت شيئاً ما ، وأن عربة ما كانت تصر خلف النوافذ .

كان حاسر الراس ، يرتدي فروة مفكوكة الأزرار ، وله لحية شعثاء ، وعينان مجنونتان .

رسم إشارة الصليب وركع على ركبتيه ضارباً جبينه بالأرض .

قلت في نفسي بحزن : « لقد ضعت » .

ــ ماذا بك ؟ ماذا بك ؟ ماذا ؟ قلت وأنا ارفعه من كمه الرمادي .

لوى وجهه ثم شرع يقول متلعثما مبعثراً كلماته :

ــ سيدي الطبيب ... سيدي ... إنها وحيدتي وحيدتي .. قال ذلك بصوت شابٍ هادرٍ اهتز له غطاء المصباح . ثم ثنى يديه بحزن وراح يضرب راسه بالأرض كانه يريد تهشيمه وهو يصيح :

ــ آخ يا إلهي آخ ...! لكن لماذا ؟ لماذا أعاقب ..؟ ما هو ذنبي..؟

فصرخت به وأنا أشعر بالبرد يلسع وجهي :

ــ ماذا ؟ ما الذي حدث ؟!

فقفز على قدميه ومط جسده نحوي واخذ يقول :

ــ سيدي الطبيب ... كل ما تريد ... اعطيك مالاً ... خذ ماشئت من المال ، خذ ماتريد .

سأحضر لك ما ترغب من المؤونة ... انقذ حياتها فقط ، لا تدعها تموت ! ابقها ولو شوهاء ، لاباس ، ليكن .

ثم صرخ متجها نحو السقف : لدينا مايكفي لإطعامها ...

بدا وجه اكسينيا الشاحب وكانه معلق في الفراغ الأسود . وغمر الحزن قلبي فصرخت به متألما :

ــ ماذا ؟ ماذا ...؟ قل !

هدأ الرجل فبدت عيناه كانهما بلا قاع . ثم أخذ يهمس لي كأنه يودعني سراً :

ـ سقطت في محلجة الكتان .

ـ في المحلجـة ..؟ وسألت ثانية ـ في المحلجـة ؟ مـاذا تعني كلمـة محلجـة ؟

فهمست لي أكسينسيا شارحة :

ـ كتان ، يحلجون الكتان ياسيدي الدكتور .. المحلجة تحلج الكتان ...

ففكرت وقد أخذني الهلع « يالها من بداية . لكن لماذا أتيت ؟ » .

ـ من الذي سقط ؟

ـ إنها ابنتي . ثم مالبث أن رفع صوته : ساعدوني ! ثم ركع من جديد على الأرض فغطى شعره المقصوص على شكل أقواس عينيه ...

* * *

كان المصباح ذو الغطاء المعدني على شـكل قرنين يضيء بهـدوء . ورأيتها على طاولة العمليات فوق الشرشف الأبيض الذي يفوح نضارة ؛ فانقشعت فكرة الفتاق من ذاكرتي .

تدلى شعرها الذهبي من على الطاولة شعثاً مفتلاً في آخره . وبدت جديلتها كثة يلامس طرفها الأرض . وتمزقت تنورتها المنقوشة وتلطخت بالدم فبدت مبرقعة ببقع باهتة وأخرى صفراء وغيرها قرمزية . وبدا لي ضوء المصباح أصغر حياً ، وبدا وجهها أبيض باهتاً وأنفها مدبباً .

ذوى على وجهها الأبيض الذي يشبه الثلج الساكن ، جمال حقيقي نادر ، لا يرى المرء مثله دائماً ، بل قلما يرى مثله .

ساد الصمت المطلق لعشر توان في غرفة العمليات ، لكن كان ثمة نحيب خافت لشخص ما خلف الباب الموصد ، وثمة ضرب للرأس على الأرض .

وفكرت : « لقد خولط في عقله وهذا يعني أن الممرضات سوف يسقونه شيئاً ما . . . . ما سر هذا الجمال ؟ صحيح ان ملامح الأب جميلة أيضاً ، لكن الأم على ما يبدو كانت حسناء . . . إنه أرمل . . . »

همست على نحو آلي :

ـ أارمل هو ؟

فاجابت بيلاجيا إيفانوفنا بهدوء :

ـ نعم أرمل .

في تلك اللحظة مزّق ديميان لوكيتش بحركة نزقة تنورة الفتاة من بدايتها وحتى نهايتها ، فعرّاها تماماً .

نظرت فرأيت ما فاق تصوري ، إذ لم يكن ثمة رجل يسري ؛ ولم يكن غير مزق تنزف ، وعضلات مهروسة دامية بين ركبتها المحطمة ووركها . وقد نتأت العظيمات المهشمة في كل الجهات . أما الرجل اليمنى فقد كانت مكسورة في غير ما موضع وقد برزت العظام عبر الجلد عند الساق . ومن جراء ذلك كانت قدمها ميتة تمددت فوق الطاولة كأنها جزء مستقل لا علاقة له بباقي الجسد .

ـ أواه . دمدم مساعدي ولم يضف أي كلمة أخرى .

وقتها صحوت من الصدمة الأولى ، فأخذت يد الفتاة لأرى نبضها الذي لم يكن محسوساً في يدها الباردة ؛ ولم اشعر بالنبضة الخافتة إلا

بعد مرور بضع ثوان . وسضت النبضة ... فكان ثمة فاصل زمني استطعت خلاله أن أنظر إلى أنفها الأزرق وشفتيها البيضاوين أوشكت أن أقول : إنها النهاية ... لكنني لم أفعل لحسن الحظ ... إذ شعرت بنبضة خيطية أخرى تحت إصبعي .

« فكرت : هكذا يموت الانسان المزق ، ولا يمكن مساعدته بشيء » ...

وفجأة قلت بصوت خشن حتى إنني نفسي لم أعرفه :

ـ الكافور * !

عندها انحنت آنا نيكولايفنا نحوي وهمست في أذني :

ـ لماذا الكافور يا دكتور ؟ لا تعذب نفسك ! لماذا الحقن أيضاً ؟ ستموت قريباً ولن تستطيع إنقاذها .

حدقت فيها بلؤم وعبوس وقلت :

ـ أرجو إعطائي الكافور ...

فهرعت آنا نيكولايفنا إلى طاولة الأدوية مهتاجة مستاءة واحضرت الحبابة .

ولم يكن مساعدي موافقاً على حقن الكافور على ما يبدو ؛ لكنه على الرغم من ذلك تناول المحقنة بسرعة وإتقان وحقن الفتاة تحت جلد كتفها الأيسر بالزيت الأصفر .

(*) استخدم الكافور قديماً لعلاج عدة حالات مرضية اهمها تخفيف الالم .

«قلت لها في نفسي : موتي هنا اسرعي ، موتي وإلا فإنني لا أعرف ماذا افعل بك » .

قال مساعدي وكأنه يقرأ ما في ذهني :

ــ ستموت الآن .

ثم نظر بطرف عينه إلى الشرشف ؛ وكان ــ على ما يبدو ــ يقول بينه وبين نفسه : من المؤسف أن يتلوث الشرشف بالدم . لكن ، بعد بضع ثوان كان لا بد من تغطيتها به .

كانت ممددة جثة هامدة لكنها لم تمت بعد ــ وفجأة أصبح كل شيء واضحاً في ذهني كما لو انني في مشرحة الجامعة ذات السقف الزجاجي .

قلت :

ــ اعطوها الكافور أيضاً .

فحقنها مساعدي مرة ثانية بطاعة تامة .

« قلت في نفسي : أويمكن الا تموت ؟ هل سأكون مضطراً أن . . . »

أصبحت الامور واضحة في ذهني تماماً إذ فهمت دون مساعدة او استشارة او عودة إلى المراجع أن عليّ أن اقوم لأول مرة في حياتي ببتر عضو في جسد شخص يحتضر ــ كانت ثقتي كبيرة بإدراكي هذا ــ آه قد تموت تحت المبضع فقد نزف دمها حتى نضب كل ما عندها ، وهي تقطع الفراسخ العشرة بساق مهشمة . وليس واضحاً إن كانت تشعر بشيء الآن او تسمع شيئاً . إنها صامتة تماماً . آه لماذا لا تموت ؟ ماذا سيقول لي والدها المجنون ؟

قلت لمساعدي بصوت غريب :

ـ جهزوا لعملية البتر !

نظرت القابلة نحوي نظرة مفترسة ، أما مساعدي فقد لمعت في عينيه إشراقة تعاطف معي ؛ ثم انهمك في تحضير أدوات الجراحة . واشعل (بابور) الكاز .

ربع ساعة مضت . رفعت جفنها البارد ونظرت برعب شديد في عينها المنطفئة . لم أستطع فهم اي شيء . كيف يمكن لنصف جثة أن تحيا . وتدفقت على جبيني قطرات العرق المالح المندفعة من تحت القبعة البيضاء . واخذت بيلاجيا إيفانوفنا تمسح عرقي بقطعة الشاش البيضاء.

تسلل المخدر إلى بقايا الدم في عروق الفتاه . اكان ضروريا حقنها بالكافيين ؟ انهمكت آنا نيكولايفينا بتدليك الانتفاخات التي نتجت عن الحقن في ارداف الفتاة . أما الفتاة فما زالت حية .

امسكت المبضع محاولا تقليد شخص ما (لم أرَ في حياتي الجامعية عملية بتر إلا مرة واحدة) ورجوت القدر الا يغيبها عن الوجود في نصف الساعة القادمة ، « والتمت فيما بعد في العنبر بعد إنهاء العملية » .

كان ذهني المتيقظ يعمل نيابة عني ، تحفزه تلك الحالة غير العادية. حززت الفخذ دائريا بإتقان كانني لحام خبير فانتفخ الجلد دون أن ينزف قطرة واحدة . « ماذا سافعل عندما يبدأ الدم بالسيلان من الاوعية ؟ » فكرت بذلك ونظرت كذئب نحو كومة الملاقط . قطعت قطعة كبيرة من لحم الفتاة وشريانا يشبه انبوبا أبيض ، ولم تنزف منه نقطة دم واحدة. ضغطت على الشريان بأحد الملاقط وتابعت العمل واضعا الملاقط في الأماكن التي يحتمل وجود الأوعية الدموية فيها شريانا شريانا . تحولت غرفة العمليات إلى مشفى كبير ، وتدلت الملاقط كالعناقيد تشدها إلى

الأعلى مع اللحم ربطة الشاش . ثم بدأت أقطع عظم الفخذ المدور بمنشار لامع ناعم الأسنان . « لماذا تموت ... ؟ إنه لمدهش كيف يتعلق الإنسان بأهداب الحياة ! » .

بعد أن انفصل العظم بعضه عن بعض بقي في يد ديميان لوكيتش ما كان من قبل ساقاً للفتاة . قطع لحم ممزق ، عظام ! وضعنا هذه الأشياء جانباً ، وبقيت الفتاة ممددةعلى الطاولة وقد تقلص ثلثها بسبب العضو المبتور الموضوع جانبا . كنت أقول لها في قلبي : « انتظري قليلاً ! قليلاً فقط ، لا تموتي ! اصبري حتى ننقلك إلى العنبر ؛ امنحيني فرصة الخروج بسلام من هذا الموقف الأكثر رهبة في حياتي » .

فيما بعد قطعت الأوعية الدموية ، مستخدماً إبرة معقوفة ، ثم أخذت أخيط الجلد بقطب قليلة من الحرير لكنني توقفت ، وكان إلهاماً هبط علي ، وأدركت ... علي أن أترك فتحة للنزف ، فوضعت هناك قطعة شاش ... بلل العرق عيني ، فشعرت أنني في الحمام ...

تنفست بعمق . ونظرت متألماً إلى الرجل المبتورة ، ثم إلى وجه الفتاة الممتقع . وسألت :

ـ هل هي حية ؟

فأجابني مساعدي وآنا نيكولايفنا بصوت كصدى متلاش :

ـ حية

ـ ستعيش دقيقة أخرى . همس المساعد في أذني وهو يحرك شفتيه دون أن يصدر صوتاً . ثم تعلثم وقال ناصحاً باحترام :

ـ الأفضل ألا نلمس الرجل الأخرى ، وأن نكتفي بلفها بالشاش وإلا فإنها لن تصل إلى العنبر ... هه ؟ سيكون من الأفضل ألا تموت في غرفة العمليات .

ـ اعطوني الجبس ! أمرت بصوت اجش تدفعني قوة مجهولة ...

ـ عطت بقع الجبس الأرض ، بينما بللنا العرق جميعاً . كان نصف الجثة ممدداً بلا حراك ، وكانت الساق اليمنى وقد لفت بالجبس ما خلا فتحة صغيرة ابقيتها كالنافذة مكان الكسر .

قال مساعدي مدهوشا :

ـ ما زالت حية .

حملناها بعد ذلك لننقلها ـ كان واضحاً تحت الشرشف حجم الجزء الكبير الذي فقدته ـ تاركين ثلث جسدها في غرفة العمليات .

كانت الظلال تتحرك في الممر ، وهرعت الممرضات ... ورأيت كيف كانت هيئة لرجل اشعث تسير جانب الحائط وتعول عويلا جافاً . لكنهم أبعدوها . فخيم صمت .

كنت اغسل في غرفة العمليات يديّ الملطختين حتى الاكواع ، عندما سألتني آنا نيكولايفنا :

ـ يبدو انك اجريت عمليات بتر كثيرة يا دكتور ؟ لقد عملت عملا ممتازاً لا يقل عن عمل ليو بولد ...

كانت دائماً تلفظ كلمة ليوبولد كأنها كلمة « دواين(*) » .

نظرت بتجهم في وجوه الحاضرين ، كانت عيونهم ـ حتى دبميان او كيتش وبيلاجيا ايفانوفنا ـ تسي بالاحترام والدهشة .

ـ احم ... أتعرفون ! اجريت عملية كهذه مرتين قبل الآن ...

(*) دواين : بالفرنسية Doyen وتعني الزعيم ، المهم .

لماذا كذبت ؟ لا افهم الآن لماذا ؟

خيم الهدوء في المشفى تماماً .

امرت مساعدي بنصف صوت .

ـ عندما تموت ارسلوا من يخبرني .

فاجاب مساعدي باحترام :

ـ بأمرك يا سيدي ، ولم يقل « حسناً » .

بعد دقائق قليلة كنت في الشقة المخصصة للطبيب ، اجلس في غرفة مكتبي بالقرب من المصباح الاخضر . كان البيت صامتاً .

انعكس وجهي الشاحب على الزجاج الأسود .

« لا لا اشبه ديمتري الكاذب ... لكنني على ما يبدو شخت قليلاً ثمة تجعيد بين الحاجبين ... سيقرعون الآن الباب ويقولون : « ماتت »

« سأذهب والقي عليها نظرة اخيرة ... الآن سيقرع الباب » .

وقرع الباب . كان هذا بعد شهرين ونصف . كان واضحاً عبر النافذة ان ايام الشتاء الاولى قد حلت .

دخل هو ، لم انعم النظر فيه الا وقتها . كانت ملامح وجهه طبيعية فعلاً ، تنم على خمس واربعين سنة . وكانت العينان مشرقتين .

بعدها سمعت حفيفاً ... فدخلت فتاة برجل واحدة تتكىء على عكازين وترتدي تنورة فضفاضة خيطت اطرافها « بكشاكش » حمر . كانت فائقة الجمال .

ـ في موسكو ... في موسكو ـ وأخذت أدون العنوان ـ هناك يصنعون الأعضاء الاصطناعية وسيصنعون لك ساقاً .

أمرها والدها فجأة :

ـ قبلي يده .

وبدون ذلك كان ارتباكي شديداً ، فقد قبلتها من انفها بدلا من وجهها .

عند ذلك أخرجَتْ ـ وهي تتكيء على عكازيها ـ لفافة قماش وفردتها ، فظهرت منشفة ناصعة البياض طرز عليها على نحو بدائي ديك احمر . نعم هذا ما كانت تخبيء تحت مخدتها عندما كنت افحصها ... نعم أذكر كيف كانت تضع الخيوط على الطاولة .

ـ لا آخذها . قلت بلهجة صارمة بل هززت راسي أيضاً . لكن وجهها وعينيها تغيرا إلى حد جعلني أقبل الهدية .

ظلت المنشفة معلقة لعدة سنوات في غرفة نومي في قرية مورينا ومن ثم ارتحلت معي أنى أرتحلت . وفي النهاية بليت واهترأت ... ثم اختفت كما تختفي الذكريات وتمحي .

* * *

العــين المفقــودة

وهكذا انقضى عام ؛ عام كامل على وصولي الى هذا المنزل . كانت ستائر المطر في ذلك اليوم معلقة بين السماء والأرض كما هو الآن ؛ وكانت آخر الوريقات الصفر على أشجار البتولا (*) قد تراخت .... شعرت انّ شيئاً لم يتغير من حولي ، لكنني انا نفسي تغيرت تغيراً شديداً . ساحيي أمسية الذكريات في وحدتي المطلقة ... مشيتُ فوق الأرضية الخشبية التي تصرّ تحت قدميّ متجهاً نحو غرفة النوم . نظرت في المرآة ... نعم ، الفرق كبير جداً ؛ فمنذ عام مضى انعكس في المرآة المستلة من الحقيبة وجـه حليق ، وزينت تسريحة الشعر الجانبية وقتها الراس الذي بلغ ثلاثة وعشـرين عامـاً ، أما الآن فقد اختفت التسريحة تماماً ، وغدا شعر الراس مرسلاً الى الخلف دون أي ممانعة ؛ إذ لا يمكن للتسريحة أن تغوي أحداً في مكان يبعد عن طريق سكة الحديد ثلاثين فرسخاً ، وهذا ما ينطبق على حلاقة الذقن أيضاً .

فوق الشفة العليا توضعت بحزم شعيرات تشبه فرشاة أسنان مصفرة خشنة ، وأصبح الخدان مثل المبشرة . ما ألطف ان يحكّ المرء بده بخدّه عندما يحتاج الى ذلك في أثناء العمل ... هذا الأمر يحدث كثيراً ، لا سيما إذا كان المرء يحلق ذقنه ثلاث مرات في الأسبوع ، فما بالك إن كان يحلقها مرة واحدة فقط ؟ !

(*) البتولا : او شجر القضبان : شجرة تنبت في البلاد الباردة ولها اصناف كثيرة . تتساقط اوراقها منذ بداية الخريف حتى بداية الربيع .

قرأت مـرة ... أو كأنني قرأت ... في مكان مـا ... أين ؟ نسيت ... قرأت عن رجل إنكليزي وصل الى جزيرة غير مأهولة . كان إنكليزياً ظريفاً ؛ عاش هناك منتظراً حتى وصل إلى مرحلة الهلوسة، وعندما اقتربت باخرة من الجزيرة ، رأته ، فأرسلت زورقاً يحمل منقذين لإنقاذه ، لكن الراهب الإنكليزي استقبلهم عندما رآهم بإطلاق النار من مسدسه ، ظاناً أنهم جنسس مائي خلبي مخادع يشبه السراب . لكنه كان حليقاً فقد كان يحلق لحيته يومياً في الجزيرة غير المأهولة . أذكر أن هذا الولد البار لإنكلترا قد أثار فيّ احتراماً هائلاً نحوه . لذا فإنني ، عندما عزمت على السفر الى هنا ، وضعت في حقيبتي آلة حلاقة من نوع « جيليت » ، ومعها « دزينة » شفرات ، إضافة الى موسى حلاقة وفرشاة . وقررت حينها قراراً حازماً أن أحلق لحيتي مرةً كلّ يومين ، لأن الحياة هنا ليست اسوأ من الجزيرة غير المأهولة في شيء . لكنْ ، حصل مرة في شهر نيسان النيّر ، انني بسطت هذه الروائع الإنكليزية كلها تحت أشعة الشمس الذهبية ، وأخذت أحلق ، ولم أكد أنتهي من حلاقة خدي الأيمن ، حتى اقتحم إيغوريتش المكان بجزمته الطويلة الممزقة ، يدبّ كحصان شَمَوس ليخبرني أن ولادة تحدث بين الأشجار فوق النهر في الغابة المحمية ... أذكر انني مسحت الخدّ الأيسر بالمنشفة وهرعت مسرعاً مع إيغوريتش .

ركضنا ثلاثتنا نحو النهر الفائض العكر الجاري بين أغصان شجيرات الصفصاف العارية ، أنا بعينيّ الجاحظتين المتوحشتين ، والقابلة ومعها ملاقط السحب ، ولفافة شاش وزجاجة يود ، وخلفنا إيغوريتش الذي كان ينحني إلى الأرض كلما مشى خمس خطوات لينزع فردة جزمته الشتوية لاعناً نعلها الذي انقلع . كان الهواء يأتي للقائنا مواجهاً ، عذباً ومتوحشاً ، إنه هواء روسيا في الربيع . سقطت بكلة القابلة بيلاجيـا إيفانوفنا عن رأسها فانحلت عقدة شعرها ، فانسدل على كتفيها .

قلت لإيغوريتش ونحن ماشيان :

ـ انت تبذر نقودك كلها على الخمر . هذه حقارة . حارس مشفى ويمشي كالصعلوك المتشرد .

فرد إيفورييتش بضجر ولؤم :

ـ أية نقود هذه لا عشرون روبلاً في الشهر لقاء تعب مضن وعذاب شديد... آخ يا ملعونة ! ـ ضرب رجله في الأرض مثل حصان مغتاظ ـ النقود لا علاقة لها بالجزملة . أما شرب الخمر فمن أين المال ياحسرة ...؟!

قلت بصوت خافت وقد انقطع نفسي :

ـ الشراب هو أهم شيء عندك، ولذلك تمشي بثيابك الرثة كالصعلوك.

وعندما اقتربنا من الجسر المتعفن تناهى إلى سمعنا عويل خفيف حزين طار من فوق فيضان النهر الجامح ثم انطفأ .

ركضنا ، وعندما دنونا رأينا امرأة شعثاء تتلوى من الألم ، سقط شالها عن رأسها فتهدل شعرها على جبينها المتعرق . كانت تحرك عينيها هنا وهناك بعذاب شديد ، وتمزق معطفها بأظافرها .

لطخ الدم القاني أول أعشاب الربيع الخضراء التي برزت شاحبةً متفرقةً على الأرض اللزجة المشبعة بالماء .

قالت بيلاجيا إيفانوفنا مسرعة :

ـ لم تصل ، لم تستطع الوصول ....

ثم شرعت تفك لفافة الشاش وهي حاسرة الرأس تشبه الساحرات المشعوذات .... وهنا ، ونحن نسمع هدير الماء المرح الذي يندفع عبر دعامات الجسر الخشبية ، استقبلنا انا وبيلاجيا إيفانوفنا الوليد الذكر ، استقبلنا روحاً حية ، وانقذنا الأم . وقامت ، فيما بعد ، ممرضتان

ننقل الوالدة على الحمالة إلى المشفى ، وقد ساعدهما في ذلك إيفوريتش الذي غدا حافي الرجل اليسرى بعد ان تحررت في نهاية الأمر من النعل المقيت البالي .

سالت الأم ، بعد أن تمددت في فراشها ساكنة شاحبة مغطاة بالملاءات، ووضع الوليد في مهده إلى جانبها، وعادت الأمور إلى طبيعتها:

ـ ماهذا ابنتها الأم ؟ ألم تجدي مكاناً لولادتك أفضل من الجسر ؟ لماذا لم تستخدمي الخيول في المجيء إلينا ؟

اجابت :

ـ لم يعطني حمي خيلاً . قال لي : إنها خمسة فراسخ لا غير وستصلين ، إنك امرأة قوية ، ومتمتعة بالعافية ، والا توجد ضرورة لإتعاب الخيل .

فقلت لها غاضباً :

ـ حموك غبي ، بل خنزير .

وعلقت بيلاجيا إيفانوفنا :

ـ آه ، إلى أين وصل هذا الشعب الجاهل . ثم ابتسمت ابتسامة ساخرة .

التقطت نظرتها التي كانت موجهة إلى خدي الأيسر ، فخرجت فوراً ، وذهبت إلى غرفة التوليد ، وهناك نظرت في المرآة ، فعكست المرآة ماتعكسه عادة : خلقة عوجاء من النوع المنتكس بوضوح ، وزرقة تحت العين اليمنى ... وهنا لم تذنب المرآة في شيء ، فقد كان خدي الأيمن يتراقص لامعاً ، أما الأيسر فقد استطالت عليه آشواك كثة شقر

مائلة إلى الحمرة ، ولعبت الذقن دور المنصف بين الخدين ، فخطر في بالي كتاب مجلد بجلدة صفراء يحمل عنوان « ساخالين »(*) فيه صور لرجال مختلفين . وتخيلت : « جريمة قتل ، عنف ، بلطة مدماة ، عشر سنوات ... بالحياني الرائعة فيهذه الجزيرة المهجورة ، لابد من الذهاب لإتمـام الحلاقة » .

سمعت وأنا اتنفس نسيم نيسان الآتي من الأراضي السود ، نعيب الغربان المنبعث من رؤوس أغصان أشجار البتولا . أغمضت عيني قليلا بسبب أشعة الشمس وسرت عبر الفناء كي أتمم حلاقة لحيتي ، كان هذا في الثالثة عصراً ، ولم استطع إتمام الحلاقة إلا في التاسعة مساء .

لا أذكر بتاتا أن مثل هذه الأحداث غير المتوقعة قد حدثت في مورنيسك منفردة ، فالمصائب هنا لاتأتي إلا مجتمعة ... لذا فلم أكد أعبر قوس الباب متجها نحو بيتي حتى ظهر لي في الباب الرئيسي وجه فرس تجر عربة ملطخة بالأوساخ ، تهتز بقوة وتقودها المرأة .

صرخت المرأة بصوت دقيق :

ـ ساعدوني .

وتناهى الى سمعي انين الولد الملفوف بكومة من الخرق البالية . كان قد اصيب بكسر في رجله بالطبع ... لذا فقد أمضيت مع مساعدي ساعتين كاملتين ونحن نجبر الرجل المكسورة بالجبس ، وهو يعول عويلاً متواصلاً لم ينقطع خلال ساعتين ... وبعد ذلك ، كان لا بدّ من تناول وجبة الغداء ، ومن ثم تكاسلت عن إتمام الحلاقة ، ورغبت بقراءة شيء ما ، ثم بدأ الظلام يمدّ جناحية ، وأرجيء أمر الحلاقة طويلا الى أن اتممتها متأخرا بغضب واكتئاب ... وهكذا بقيت ذكرى الولادة الربيعية فوق

(*) ساخالين : جزيرة نائية تقع بالقرب من اليابان ينفى إليها الخارجون عن القانون .

الجسر في ذاكرني الى الأبد مثلما بقيت الخطوط الصدئة على ماكينة الجيليت المنسية في ماء الصابون .

وعلى كل حال ... فالحلافة مرتين في الأسبوع لا مسوغ لها بتاتاً ... فقد كانت العاصفة الثلجية تهب أحياناً ، فيغمرنا الثلج كلياً ، ويحاصرنا فنبقى يومين في مشفى موريفسك دون أن نستطيع إرسال الحمال ليحضر الجرائد التي تباع على بعد تسعة فراسخ . وكنت اقضي الليالي الطوال أفيس ، وأفيس غرفة المكتب متشوقاً بشدة لقراءة الجريدة شوقاً يشبه شوق الأطفال لقراءة (قياف) كوبر(*) . لكن ، مع ذلك فإن العادات الانكليزية لم تنته تماماً في جزيرة موريفسك غير المأهولة ، لذا كنت أخرج أحياناً العوبتي الجميلة من غلافها الأسود ، وأحلق لحيتي دون حماس ، فأغدو ناعماً نظيفاً كذاك الانكليزي الأبي ،

لكن ، للأسف لم يكن ثمة من يمكن أن يستمتع بالنظر إلي .

اسمحوا لي ... فقد تذكرت حادثة اخرى :

ما إن أخرجت مرة آلة الحلاقة ، وأحضرت اكسينيا كوز الماء المغلي المثلم حتى قرع الباب بقوة ، وأرسل من يطلبني ... انطلقت انا وبيلاجيا إيفانوفنا نحو مكان ناء مخيف ، ملتحفين بفراء الخراف . ومضينا في طريقنا . لقد كنا مع الخيول والحوذي نشبه شبحاً اسود يعبر محيطاً مسعوراً من الثلج الأبيض .

كانت العاصفة تصفر من حولنا مثل ساحرة مشعوذة ، وتعوي ، وتنفث ، وتقهقه . اختفت الأشياء من حولنا تماماً . وشعرت ببرد

(*) جيمس فينيمور كوبر : Jams Fenimore Cooper ، اديب امريكي (١٧٨٩ – ١٨٥١) اشتهر بسلسلة رواياته التي تتحدث عن عالم البحار ، ومنها روايه (القياف) .

ـ كنت قد عرفته سابقاً ـ في بطني ، في الضفيرة الشمسية بالتحديد ، وراودتني فكرة اننا سنخرج عن الطريق في هذه العتمة الشيطانية المراوغة ، وسنضيع جميعاً في هذه الليلة : انا وبيلاجيا إيفانوفنا والخيول والحوذي . وخطرت في ذهني وقتها فكرة غبية ، كما اذكر ، وهي انني ساقوم ـ عندما يغمرنا الثلج الى منتصفنا ونبدأ بالتجمد ـ بحقن نفسي والممرضة والحوذي بالمورفين ... لماذا ؟ كي لا نتعذب ...

اجابني صوت جاف وقوي . لا بأس ايها الطبيب ، ستموت من البرد ، ستموت ميتة فائقة ، ودون مورفين ، ثم صفرت المشعوذة غو ، او ، اس س.... واخذت تهزنا في زلاجاتنا وتهزنا ... نعم سيعلقون هناك في جريدة العاصمة في الصفحة الاخيرة من الجريدة عن كذا وكذا ... وانهم ماتوا اثناء تادية الواجب ؛ الطبيب فلان ـ على حد سواء ـ مع بيلاجيا إيفانوفنا والحوذي وزوج الخيول ، رحمهم الله دفنوا في بحر الثلج . اللعنة ... ماذا يخطر في الذهن عندما يقودك ما يسمى بالواجب المهني ، ويقودك ...

لكننا لم نمت ، ولم نضل الطريق ، بل وصلنا الى قرية غريشيفو حيث قمت بثاني تحويل للرجل في حياتي اثناء التوليد . كانت الماخض زوجة معلم القرية .

وبينما كنا نعارك انا وبيلاجيا إيفانوفنا تحت ضوء المصباح كي نحول اتجاه الجنين وكانت ايدينا غارقة في الدم حتى الاكواع ، والعرق بلل اجسادنا حتى العيون ، كان انين الزوج مسموعاً وهو يذرع الارض جيئة وذهاباً خلف الباب الخشبي في الجزء الخارجي من البيت .

وبين نشيج الماخض ، وانين الاب الذي لا يهدأ ، كسرت ـ اقول لكم والسر بيننا ـ يد الجنين .

تلقينا الولد ميتاً . آه سال العرق في ظهري . وخطر في ذهني فجأة ان شخصاً مخيفاً وضخماً واسود سيظهر ، ويقتحم البيت ، ويقول بصوت من حجر :

ــ نعم ! يجب ان نسحب منه شهادة الدبلوم .

نظرت بأسى ، وقد همدت تعباً ، نحو الجسد الأصفر الميت ، ثم نحو الأم التي كانت ممتقعة ممددة بلا حراك ، غارقة في غيبوبة بفعل الكلوروفورم .

كانت العاصفة وراء النافذة على أشدّها . وفتحنا الكوة لدقيقة كي نتخلص من رائحة الكلوروفورم الخانقة ، فتحول ما دخل من هواء العاصفة الى سحابة من البخار . فيما بعد اغلقت الكوة ، واخذت احدق في يدّ الأم المتدلية العاجزة بين يدي القابلة .

آه ، لا استطيع التعبير عن اليأس الذي تملكني وانا اعود الى البيت وحيداً بعد أن تركت بيلاجيا إيفانوفنا عند الأم كي تعتني بها .

كنت اهتز في المزلجة وسط العاصفة التي اخذت تهدأ ، ووسط الغابة التي ترنو إليّ معاتبة قانطة حزينة . شعرت بنفسي مهزوماً ، يسحقني القدر القاسي ، القدر الذي رماني في هذه الغابة ، وارغمني على الصراع وحيداً دون مؤازرة او توجيه . ما اكثر الصعوبات الهائلة التي يمكن أن تعترضني هنا ، إذ يمكن أن يحضروا إليّ حالات مخادعة أو معقدة ، تكون في الأغلب حالات جراحية ، وعلي ان اقف امامها مواجهة ، بوجهي غير الحليق ، وان اتغلب عليها . وإذا لم تتغلب ، فتعذب إذاً كما هي حالك الآن وانت تقطع الأراضي الوعرة تاركاً وراءك جثة طفل ، وأماً مريضة . غداً ، فور هدوء العاصفة ستاتيني بها بيلاجيا إيفانوفنا إلى المشفى وسيواجهني سؤال كبير ــ هل استطيع مساعدتها ؟ وكيف يمكنني أن افعل ذلك ؟

المساعدة : كيف يمكن فهم هذه الكلمة العظيمة ؟

في الحقيقة إنني أنصرف بطريقة اعتباطية ، ولا أعرف شيئاً . لكن حتى الآن كنت أوفق في عملي ، وأنتجت يداي أشياء ناجحة ورائعة ، أما اليوم فلم يحالفني الحظ . آه إن قلبي منقبض من الوحدة ، من البرد ، من أن العالم خال من حولي .

من المحتمل أيضاً أنني ارتكبت جريمة ـ اليد المكسورة !

سأرحل إلى مكان ما ـ اركع أمام رجل شخص ما وأقول ..... هذا أنا وقد حدث كذا وكذا ... أنا طبيب وقد كسرت يد وليد . اسحبوا مني شهادة الدبلوم فأنا لا أستحقها ، زملائي الأعزاء ؛ أرسلوني إلى ساخالين . تباً لانهيار الأعصاب .

تكاكأت على نفسي كي أختبىء في قعر المزلجة حتى لا يأكلني البرد المخيف ، وشعرت بنفسي مثل كلب متشرد غر يستحق الشفقة .

سرنا مدة طويلة قبل أن يضيء المصباح المعلق عند مدخل المشفى . ياله من مصباح صغير فرح وعزيز دائماً ، كان يتلألأ قوياً تارة وباهتاً تارة أخرى فيختفي ثم يسترعي الانتباه ... وعندما أثبت نفسه بقوة أمام عيني ، وعندما كبر واقترب ، وعندما تحولت جدران المشفى من اللون الأسود الى الأبيض قلت في نفسي وأنا أعبر المدخل :

« هراء أن تفكر باليد المكسورة . فهذا أمر لا أهمية له البتة . أنت كسرت يد وليد ميت . يجب عدم التفكير باليد بل بالأم الحية » .

أثار في المصباح ، ومنظر الطابق الثاني ، النشاط ، فقد أمسيت على كل حال داخل البيت ، وأتممت طريقي صاعداً الدرج باتجاه غرفة المكتب ، شاعراً بدفء الموقد ، منتظراً بسوق النوم الذي سينسيني عذاباتي كلها .

« نعم هذا ما حصل ، لكن ، إضافة إلى ذلك ، فثمة وحدة مطلقة ومخيفة ، وحدة موحشة » .

كانت آلة الحلاقة على الطاولة ، وبجانبها كوز الماء المغلي الذي غدا بارداً ، رميت الآلة باحتقار في الصندوق . ما أشد حاجتي الى الحلاقة . . .!

هذا عام كامل مر ، وبينما كان يمضي بطيئاً كان يبدو طويلاً جداً ، متعدد الاشكال ، معقداً ومخيفاً ، لكنه الآن كما أراه : طار كالزوبعة . وها أنذا انظر في المرآة لارى آثاره التي تركها في وجهي : العينان أصبحتا أكثر جدية وصرامة وقلقاً ، والفم أكثر ثقة ورجولة ، وثمة تجعيدة فوق أرنبة الانف ستبقى مدى الحياة مثلها في ذلك مثل ذكرياتي .

اراهم(*) في المرآة جميعا . يركضون ركضاً محموما . أعذروني فعندما كنت أرتجف خوفاً مما خطر في ذهني حول شهادة الدبلوم ، وحول المحاكمة التي سيجريها لي شخص خيالي ، خطر في ذهني أيضا ان عدداً من القضاة المحلفين سيسألونني :

« اين فك العسكري ؟ اجب أيها المجرم المتخرج من الجامعة » .

يا لها من ذكرى ! القصة وما فيها انه يوجد في هذا الكون مساعد طبيب هو ديميان لوكيتش، يقلع الأسنان بحذق يشبه حذق النجار الذي يقلع المسامير الصدئة من الالواح الخشبية العتيقة ، ومع ذلك فإن اللباقة واحترام النفس أمليا علي ـ منذ اللحظة الأولى لقدومي إلى مشفى مورينسك ـ ان اتعلم قلع الأسنان دون الاعتماد على الآخرين ؛ فمن المحتمل أن يتغيب ديميان لوكيتش للحظة ، أو يمرض . أما الممرضات فإنهن يستطعن كل شيء ما عدا شيئاً واحداً هو قلع الأسنان ، فهذا ليس من شأنهن .

(*) المقصود : الطاقم الطبي الذي يعمل معه .

حصل مرة ... أتذكر جيداً وجهــه المورد الخدين ، والمعذب في الوقت ذاته ، وهو يجلس أمامي على الكرسي ؛ كان جندياً عائداً مثــل الآخرين من خط الجبهة المنهار بعد الثورة . أذكــر تماماً ذلك الضرس الضخم الراسخ ذا الجوف الكبير ، المزروع بثبات في الفــك . وبجزع شديد بدأت العمل ، كان حاجباي مقطبين تعبيراً عن الحكمة ، تنحنحت ووضعت الكماشة على الضرس ، عندها خطرت في ذهني على نحو شديد الوضوح قصة تشيخوف التي يعرفها الجميع حول قلع سن الشماس ، فعرفت للمرة الأولى أن القصة ليست مضحكة أبداً . نشبت قرقعــة شديدة في فم الجندي فاستغاث على نحو مقتضب :

ــ آي ، ويلتاه !

أخذت يداي بعــد ذلك تعملان في فمه دون ممانعــة ثم خرجت الكماشة من الفم قابضة على شيء أبيض مضمخ بالدم . عند ذلك خفق قلبي بشدة لأن هذا الشيء كان في حجمه أكثر ضخامة من ضرس ، بل أضخم من أي ضرس عسكري أصيل ، في البداية لم أفهم شيئاً بتاتاً لكني فيما بعد أوشكت أن أبدأ بالنشيج ، إذ ظهر في الكماشة ــ على وجــه الحقيقة ــ ضرس ذو جذور قوية ، لكن هذا الضرس قد حمل معه قطعة كبيرة حمراء مائلة إلى البياض من عظم الفك .

« لقد كسرت فكه .. » فكرت بذلك وقد أخذت رجلاي تخذلاني . أشكر القدر أنني وحيد هنا وليس حولي المساعد أو القابلات .

لففت خلســة ثمرة عملي الجسور في قطعة من الشاش وخبأتهــا في جيبــي .

كان الجندي يرتجف على كرسيه متمسكاً بيده الأولى برجل كرسي القابلة ، ومنشبثاً بيده الأخرى برجل كرسيه ؛ ينظر إلي محملقاً بعينين مشدوهتين تماماً . فناولته بارتباك شديد كأساً مــن محلول صودات البوتاسيوم وأمرته :

ـ تمضمض !

كان هذا عملاً غبيا ، فقد ملأ فمه بالمحلول وعندما بصقه في الكوز خرج من فمه ممزوجاً بدم عسكري أحمر تحول في الطريق بين فمه والكوز إلى سائل كثيف ذي لون لا نظير له ؛ ومن ثم نفر الدم من فم الجندي بصورة جعلتني أتجمد من الفزع .

لو انني طعنت هذا المسكين بسكين في حلقه لكان من المستبعد أن ينزف دماً اكثر . ازحت كاس المحلول المطهر ، وأتيت الجندي بلفافات الشاش واخذت أسد الحفرة المفتوحة في فكه . كانت قطع الشاش تتحول على الفور حمراء قانية ، وعندما كنت أخرجها من فمه كنت أرى بهلع شديد أن هذه الحفرة يمكن أن تتسع بسهولة لحبة خوخ من الحجم الكبير .

« لقد خربت فم الجندي » فكرت بذلك بقنوط وأنا اسحب قطع الشاش الطويلة من الوعاء الزجاجي . في النهاية خفّت حدة النزيف ، فمسحت فك الجندي باليود .

ــ قلت لزبوني متأنئا :

ــ عليك الا تأكل شيئاً لمدة ثلاث ساعات .

فأجاب الجندي وهو يحملق مبهوتاً في الكوز الذي مليء من دمه :

ــ أشكركم شكراً جزيلاً .

فقلت بصوت رؤوف :

ــ اسمع يا صديقي . اسمع ... تعال إليّ غداً أو بعد غد كي أراك ... أظن ... كما ترى أنه لا بد من فحصك .. فإلى جانب ضرسك المقلوع ، ثمة ضرس ينذر الشسك ... اتفقنا ...

ـ اشكركم شكراً جزيلاً . اجاب الجندي عابساً ثم ابتعد يمسك خده بيده . اما انا فقد خففت إلى غرفة الاستقبال وجلست هناك لبعض الوقت أمسك راسي بيدي وأهزه كأنني أتوجع من ألم الضرس مثـل الجنـدي .

أخرجت ـ خمس مرات تقريباً ـ من جيبي اللفافة القاسية المدماة ثم عدت وأخفيتها . لقد عشت أسبوعاً كاملاً حياة ترقب وقلق فاعتل جسمي ونحـل .

« سيصاب الجندي بالغنغرينا ، أو بتسمم في الدم...آه ، اللعنة، لماذا حشرت أنفي وكماشتي بهذا الأمر ... » ...

ارتسمت لوحات مجنونة في مخيلتي : ها هو ذا الجندي أخـذ يرتعش . في البداية كان يمشي ويتحدث عن كيرينسكي وعن الجبهة ، فيما بعد أصبح أكثر صمتاً ، وغدا مشغولاً عن كيرينسكي . الجندي متمدد يتوسد حشبة قطنية ويهذي . درجة حرارته اربعون . القرية بأكملها جاءت لتعود الجندي . فيما بعد يتمدد الجندي بأنفه المدبب على الطاولة ، يبتهل للأيقونات .

تبدأ التقولات في القرية :

ـ كيف جرى ذلك ؟

ـ « الدختور شلّو ضرسو » .

ـ هه فهمت هم ...

لاحقاً ، تزداد الأمور تضخيماً . وجراء ذلك يأتي الى شخص عنيف

ـ انت قلعت ضرس الجندي ؟

ـ نعم ... أنا .

يشرّحون جثة الجندي ، محكمة . فضيحة . أنا سبب الوفاة . وهكذا لم أعد طبيباً ، بل أصبحت انساناً منبوذاً مرمياً عن ظهر السفينة أو على الاصح كنت إنساناً .

لم يظهر الجندي ، اكتأبت ، جفت اللفافة وصدئت في درج طاولة المكتب .

كان عليّ ان أسافر إلى مركز القضاء خلال أسبوع كي أقبض رواتب العاملين في المشفى . وسافرت بعد خمسة أيام الى المركز . ذهبت الى طبيب مشفى المدينة قبل كلّ شيء . كان امرءاً ذا لحية صفراء من آثار الدخان ، يعمل منذ خمس وعشرين سنة في المشفى . لقد حنكه الدهر . جلست عنده مساء في غرفة المكتب . أخذت اشرب الشاي بالليمون مكتئباً وانكس باظافري غطاء الطاولة ، لكنني لم استطع صبراً فشرعت أحدثه مواربا ، وبطريقة ضبابية كاذبة : ... يحدث أحياناً أن ... بالطبع إذا حاول أحدهم ان يقلع سناً ... وكسر الفك ... قد يحدث احياناً غنغرينا اليس كذلك ... أتعرفون قطعة من الـ ... لقد قرأت.

كان هو يسمع ، ويسمع محملقاً نحوي بعينيه الباهتتي اللون اللتين يعلوهما حاجبان كثان .. وفجأة قال ما يلي :

ـ هذا انت إذاً من كسر له الهلّيل .... ستصبح قالع أضراس ممتازاً . دع الشاي وهيا بنا نشرب الفودكا قبل العشاء .

ومنذ تلك اللحظة ذهب معذبي (الجندي) من رأسي الى الابد .

آه ، يا مرآة الذكرى . مضى عام . كم هو مضحك أن أتذكر ذلك الهلّيل . انا ، في الحقيقة لن أقلع في يوم من الأيام الأسنان كما يفعل ديميان لوكيتش . بالتأكيد فهو يقلع يومياً قرابة خمس قطع ، اما انا

فمرة خلال اسبوعين ، واقلع فيها سناً واحداً . لكنني على كل حال أقلع الاسنان كما يتمنى الكثيرون . كما أنني لم اعد أكسر الأهلة ، وإذا ما حدث وكسرتها فلا اخاف .

دعنا من الاسنان فهي لا شيء مقارنة مع ما شاهدته وفعلته خلال هذا العام الذي لا مثيل له .

تسرب المساء الى الغرفة ، واضاء المصباح ، وجلست أجمل النتائج سابحاً في دخان السجائر المر . كان قلبي طافحاً بالاعتزاز . لقد قمت بعمليتي بتر فخذ . بتر الأصابع لا أعده ذا شأن أما الإجهاضات فها هي سجلت عندي ثماني عشرة مرة . اما عمليات الفتق وشق الرغامى فقد قمت بها وانتهت بنجاح ! وما أكثر الخراجات العملاقة التي فقأتها ! وكم مرة شددت الاربطة على الارجل المكسورة، وكم مرة جبرتها برباطات الجبس ! وكم مرة قومت الخلع الولادي . وكم مرة ادخلت الانابيب في الاعضاء الجوفاء ! والولادات ! تعالين أيتها الأمهات تعالين فمهما كانت الولادات ، لن أجري عمليات قيصرية أبداً . هـذا قول صدق . من الممكن أن أرسل الماخض الى المدينة . اما اذا احتاج الأمر الى استخدام الملاقط وإجراء التحويل فلا بأس سأجريها مهما كانت ..

اذكر امتحان التخرج الأخير في مادة الطب الشرعي واذكر البروفيسور عندما قال

ــ حدثني عن الجروح التي يحدثها طلق ناري عن قرب .

اخذت أتحدث دون تكلف ، وتحدثت طويلا ... كانت تسبح في مخيلتي أوراق الكتاب الجامعي السميك . وفي النهاية نفدت قواي . فنظر البروفيسور إلي بتقزز ثم قال بصوت حاد :

ـ لا شيء مما قلته يمكن ان يحدث في حالات الجراح الناتحة عن قرب . كم مرة نلت علامة « خمسة » ؟

فاجبته :

ـ خمس عشرة مرة .

فوضع مقابل كنيتي علامة ثلاثة ، وخرجت طريداً مفضوحاً ...

خرجت ، وسافرت بعدها سريعاً إلى موريفسك ، وها انذا هنا لوحدي . الشيطان وحده يعلم ماذا يحدث في حالات الجراح الناتحة عن طلق ناري عن قرب . لكن ، هل اربكت يا ترى عندما تمدد هنا امامي على طاولة الجراحة رجل كان يَخرُجُ من شفتيه زبد كالفقاعات ، احمر بسبب اختلاطه بالدم ؟ علماً أن صدره كله كان قد مزقه الذئب ، حتى بدت الرئتان بوضوح وتعلق لحم صدره مزقاً . هل ارتبكت يا ترى ؟ وخلال نصف شهر خرج من مشفاي حياً معافى . أيام الجامعة لم أتشرف مرة واحدة بإمساك ملاقط التوليد الجراحية بيدي ، أما هنا ، فصحيح أنني استخدمها بارتجاف ، لكنني استخدمتها خلال دقيقة واحده . لا أخفي انني استقبلت ولداً عجيباً فقد كان نصف راسه منتفخا أزرق قرمزيا ، أعور ، لقد ارتجفت خوفاً . وسمعت باضطراب كلمات بيلاجيا إيفانوفنا المواسية :

ـ لا بأس يا دكتور ، يبدو انك وضعت الملقط في عينه .

لقد ارتجفت يومين متواصلين ، لكن بعد ذلك عاد الرأس الى طبيعته .

ما اكثر الجروح التي خطتها ! وما أكثر التهابات البلورا القيحية التي رأيتها وفتحت الضلوع على الرغم من ذلك ! ما اكثر الالتهابات

الرئوبة والأذنية ، والسرطانات ، والسفلس ، والفتوق (وعالجتها) ، والباسور ، والأورام اللحمية ! ! ....

فتحت سجل المرضى واخذت اقلب الصفحات بإلهام . واحصيت. خلال عام ، وحتى هذه اللحظة السائبة ، عالجت (١٥٦١٣) مريضاً ، وبلغ عدد المرضى الذين اقاموا في المشفى (٢٠٠) مريض ، ومات (٦) فقط .

اغلقت السجل وذهبت للنوم ؛ تمددت على السرير واغمضت عيني وانا افكر بأن تجربتي قد أصبحت هائلة . فما الذي يخيفني ؟ لا شيء . لقد اخرجت حبة الحمص من اذن طفل ، واجريت اعمالاً جراحية كثيرة ... يدي الرجولية لم تعد ترتجف . لقد رأيت كثيراً من المخادعات وتعلمت أن افهم أساليبهن النسائية التي لا يفهمها احد . لقد أصبحت أميز فيما بينهن كما يميز شارلوك هولمز الوثائق السرية .... لحظة النوم تقترب ... « انا — ومددت وأنا انام — انا لا اتصور انه يمكن أن يأتوني بحالة تستطيع ان تضعني في مأزق ... هناك في العاصمة سيقولون . او يحتمل ان يقولوا : هذه أعمال يقوم بها مساعدو الأطباء ... ليكن ... لا بأس فحياتهم مريحة ... في العيادات والجامعات ... في غرف التصوير الشعاعي ... أما انا فهنا ... كل يوم ... كل الفلاحين لا يستطيعون العيش بدوني ... آه كيف كنت أرتجف سابقاً عندما يقرع الباب ... وكيف كانت افكاري تتشنج من الخوف ... أما الآن ... » .

— متى حدث هذا ؟

— منذ اسبوع يا أبانا (*) ، منذ اسبوع ، عزيزي ... لقد انتفخت .

(*) نمط من النداء في اللغة الروسية يهدف الى التحبب والاحترام معاً .

وشرعت المرأة تبكي .

أطلّ الصباح الغائم التشريني ، وهو أول صباح في عامي الثاني . فالبارحة مساء فقط اعتززت وافتخرت ... وأنا أنام ، واليوم أقف في ردائي الأبيض حائراً أحملق .

كانت المرأة تحمل بين يديها طفلاً ابن عام واحد . تحمله وكأنه حطبـة .

لم يكن للطفل عين يسرى . وقد نتأت من مكان العين ، من تحت جفنيه الرقيقين المرسلين كرة الصفراء اللون بحجم تفاحة صغيرة .

كان الولد يبكي من الألم ويضرب بيديه وكانت الأم تشكو منتحبه . وهنا حرت في أمري .

قلبت الطفل وفحصته من جميع الجوانب ، كان ديميان لوكيتش والممرضة يقفان خلفي ساكتين إذ لم يريا مثل هذا من قبل .

« ماذا يمكن أن يكون هذا ..؟ فتق دماغي ... هم ... مازال حياً ... ورم لحمي ... هم ... بسيط ... ياله من ورم عجيب ومرعب !... من أين نما ... أمن العين التي كانت ...؟ من المحتمل أن هذه العين لم تكن موجودة في يوم من الايام ... على كل حال هي الآن غير موجودة ... » .

قلت لها وقد تلبسني الإلهام :

ـ لابد من شق هذا الشيء ...

وهنا تصورت نفسي وأنا أشق الجفن كي أشكل فتحة كبيرة بين جزأيـه ....

« وماذا بعد ذلك ؟ من المحتمل أن يكون الورم ناتجاً عن الدماغ فعلياً ... اللعنة ... الشيطان ... بسيط ... يشبه أن يكون دماغياً ... » .

سألت الام وقد امتقع لونها .

ـ ماذا تشق ؟ اتشق العين ؟ لا أوافق .

واخذت مرتعبة تلف ابنها باللفافة .

فأجبتها إجابة قطعية حازمة :

ـ لا توجد عين عنده من الأساس . انظري اين يمكن ان تكون هذه العين ؟ عند ابنك يوجد ورم عجيب ..

فقالت الام خائفة :

ـ أعطه قطرة .

ـ ماذا اتهزئين ؟ اية قطرة ؟ لا يوجد قطرة يمكن أن تساعدني في مثل هذه الحالة .

ـ وماذا ؟ ايمكن ان يبقى بلا عين ؟

ـ لا يوجد عين لقد قلت لك .

فاجابت الأم بأسى :

ـ لكنها كانت موجودة حتى يومه الثالث من بدء الورم .

« اللعنة » ...

ـ لا اعرف ، من الممكن أنها كانت موجودة ... تبأ للشيطان ... لكنها الآن غير موجودة ... اتعرفين . على كل حال ، الأفضل أن تأخذي ابنك إلى المدينة ، وبسرعة شديدة ، هناك سيجرون له عملية جراحية ... اليس كذلك يا ديميا ن لوكيتش ؟

اجاب مساعدي وهو يفكر بعمق . وكان واضحا انه لا يعرف ما يمكن ان يقوله :

ـ نعم ، هم ... ورم عجيب .

سالت المراة مذعورة :

ـ سيسقونها في المدينة ؟ لن أدعهم يفعلون .

وانتهى الأمر بان اخذت المراة ابنها دون أن تسمح لأحد أن يلمس عينه .

لقد اتعبت راسي يومين متواصلين وانا أهز كتفي ، وانقب في المكتبة، ممعنا النظر في الرسوم التي يظهر عليها اطفال خرجت مكان عيونهم حويصلات .... اللعنة

بعد مرور يومين نسيت الطفل تماماً .

* * *

مر اسبوع .

ـ لتدخل آنا جوكوفا . صحت بصوت عال .

دخلت المراة مرحة تحمل بين يديها طفلا .

سالت سؤالي المعتاد :

ـ ما الأمر ؟

انقبض قلبي وكدت أختنق بينما شرعت تخبرني ، والسبب ما ابتسمت ابتسامة ساخرة .

كانت تتحدث بنبرة صوت جعلتني ارتعش .

سألتني المرأة بسخرية واضحة :

ـ هل عرفته ؟

ـ قف ... قف ... آه نعم ... قف ... هذا هو الطفل نفسه .

ـ نعم هو نفسه . أتذكر يا سيدي الدكتور ، لقد قلت إنه لا توجد عين ولا بدّ من الجراحة بغية ...

شدهت لهذا . ونظرت المرأة نحوي نظرة احتقار ، يلعب في عنيها الضحك .

جلس الطفل بين يديها صامتاً ينظر الى الضوء بعينيه الشهلاوين . لم يكن ثمة وجود لأي حويصل أصفر في العين .

قلت في نفسي وقد اخذ الوهن مني كلّ مأخذ « هذا شيء من السحر ... » .

فيما بعد ، وحين تمالكت نفسي ، رفعت جفن الطفل بحذر . فبكى الطفل وحاول ان يدير رأسه ، لكنني مع ذلك رأيت ... ندباً صغيراً جداً على غشاء العين . آ .. آ ...

ـ فور أن خرجنا من عندك وقتذاك ... حتى انفقأ ..

فقلت لها مرتبكا :

ـ لا ضرورة للشرح أيتهـا المرأة . لا تقعي عليّ ... لقـد فهمت كلّ شيء .

ـ كنت تقول لا يوجد عين ... هه اتمنت بسرعة إذاً ؟ ثم ضحكت باستهزاء .

« لياخذني الشيطان .. لقد فهمت ... لقد ظهر في جفنه الاسفل خراج ضخم ، وكبر بسرعة حتى زاحم العين ، وغطى عليه تماماً ... فيما بعد ، عندمـا انفقأ الخراج ، وخرج القيح ... عاد كل شـيء الى مكانه ... » .

* * *

لا ، لن أقول بعد اليوم أبداً إنني اعرف كل شيء ، وإن شيئاً ما لن يدهشني . لن اقول ذلك ، حتى وأنا انام . ومرّ عام ، وسينقضي عام آخر سيكون غنياً بالمفاجآت الى حدّ كبير ، مثله مثل الأول ... هـذا يعني أنني يجب ان اتعلم دون غرور .

* * *

الفهرس

٣٥٠٠ ط١ ١٩٩٧/١٢/١

تجاوز اسم ميخائيل بولغاكوف الحدود كلها عندما ترجمت رواية (المعلم ومرغريتا) الى الفرنسية فالانكليزية فبقية اللغات الحية.

لم تنشر في الاتحاد السوفيتي بالروسية الا في أواخر الثمانينات. ثم نشرت في الاتحاد السوفيتي أيضاً باللغة العربية، ترجمة يوسف الحلاق التي كانت قد نشرتها وزارة الثقافة بدمشق.

من مفارقات ميخائيل بولغاكوف انه اكتشف موهبته الأدبية وهو يمارس مهنة الطب، في أوكرانيا نهاية الحرب العالمية الأولى ومع أن ستالين أعجب بمسرحياته وبشهد احداها أكثر من مرة، فقد منع نشر مؤلفات بولغاكوف في الاتحاد السوفيتي لسبب بسيط ومقنع اذ ذاك، وهو أنها تقول مايجب أن يقوله كل كاتب حر. ولم يعد الى الوظيفة التي كانت مصدر عيشه الا بأمر من ستالين.

الكتاب الذي تنشره الوزارة اليوم في ترجمة وتقديم جيدين، يقدم لقرائنا لوحة بعدة صور عن الوضع الاجتماعي البائس للانسان الأوكراني - والروسي أيضاً - وبخاصة بعد حرب طاحنة كادت تدمر روسيا القيصرية. وهزيمة القيصر كانت من جملة العوامل التي جعلت شعوب الامبراطورية القيصرية تستسلم للثورة الشيوعية وتسهم في انجاحها.

القصص هذه، وبالاضافة الى ماتقدم، تدل على أن عبقرية بولغاكوف الأدبية ولدت أكاد أقول، كاملة مع أوائل أعماله الأدبية.

طبع في مطابع وزارة الثقافة

دمشق ١٩٩٧

سعر النسخة داخل القطر ١٠٠ ل.س

في الاقطار العربية مايعادل ٢٠٠ ل.س